69

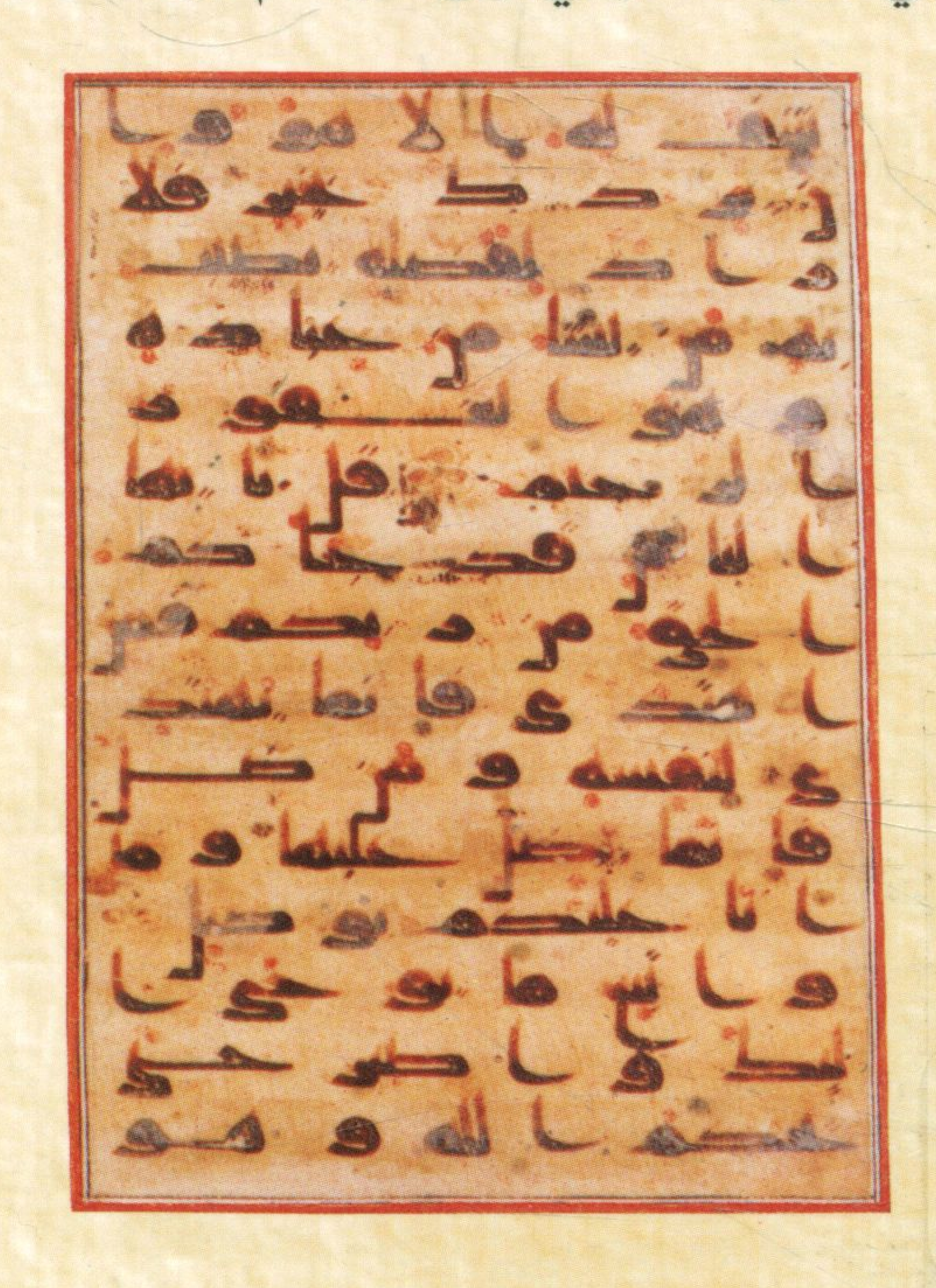
مقام مقال

د. حمادي صمود

بلاغة "الانتصار"

في النقد العربي القديم

رسالة أبي بكر الصّولي إلى مزاحم بن فاتك أنموذجا









مقـــام مقـــال، سلسلة جديدة في دار المعرفة للنّشـــــــر، تفتح أبوابها للأقـــلام المبـــدعة وذوي العقـــــــول المدبّرة، للإقامة معهم في رحاب فكرهم. وهي قبـــل كلّ شـــــيء دعوة للكتابـــــــة المفكّرة الجذلى التّي ترحـــل بالقـــارئ إلى حـــدائق المعرفة المرحة وتحمله في سفرة بعيدة في دنيا الأفكارحيث يسمع في كلّ مقام ما يحتدّ بـــه النّظر، ويذوق من كلّ مقال عسل الفكر.

سلسلة مقام مقال

مقام للضّيافة،
ولكنّها مقال للإضافة

مديـــر السلسلـــة
العادل خضر

مديـــر دار المعرفـــة للنّشـــر
بدر الدين دبّوسي

تبادل ٢٠١٠
وزارة الثّقافة و المحافظة على التراث ـ
المكتبة الوطنية
الجمهورية التونسية

بلاغة " الانتصار"
في النّقد العربي القديم

المؤلّف: حمادي صمود

الكتاب: بلاغة "الانتصار" في النّقد العربي القديم

كمّيّة السحب: 1000 نسخة

طبعة أولى: 2006

الإخراج الفنّي وتصميم الغلاف: مرايا الحداثة (98.613930)

حمادي صمود

بلاغة "الانتصار"

في النقد العربي القديم

رسالة أبي بكر الصّولي إلى مُزاحِم بن فاتِك أنموذجا

"ابتكار المعاني خطر"

تقديم: محمد بن العربي الجلاصي

نقّاد "الانتصار" في أفق الحداثة

يضعنا كتاب "بلاغة الانتصار" في مواجهة محنتين نظريّتين: أولاهما كيف نقرأ مقالة الصّولي في انتصارها للقدم ونحن في صميم تحوّلات جذريّة عميقة في سياسة النّصّ وتأويله؟ وما هو المقام الذي جهّزناه لإلقاء هذا السّؤال؟ وثانيتهما كيف نقرأ تأويلا قديما يراهن على أنّ الكاتب يمتلك القانون البلاغي لكتابته وفي ذهننا ماانتهى إليه إيكوECO من أنّ المؤلّف "فرضيّة خطابيّة" وماصاغه دريدا DERRIDA عن كون النّصّ آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللاّمتناهية.

في هذه الحقول الإشكاليّة فكّر حمّادي صمّود. فانطلق من تأمّلات اختباريّة شاقّة في البلاغة والنّقد وبنى تأويلات حول قاعدة الكتابة الشّعريّة. وهذا الكتاب وجه من مشروع صمّود البلاغي والفكري. فقد وضع في أطروحته حول التّفكير البلاغي أسس البلاغة العربيّة ثمّ ألّف كتابه الوجه والقفا في تلازم التّراث والحداثة. وألّف كتاب في نظرية الأدب عند العرب ثمّ أصدر ثلاثيّته: من تجلّيات الخطاب البلاغي ومن تجلّيات الخطاب الأدبي (قضايا نظريّة) ومن

تجلّيات الخطاب الأدبي (قضايا تطبيقيّة). وأصدر كتاب بلاغة الهزل منطلقا من النّصوص باعتبارها وقائع خطابيّةً لبناء تأويلات عن التّفكير البلاغي والنّقديّ.

إنّ صمّود يحاور نصّ الصّولي من مواقع نظريّة حديثة وهو محمّل بإشكاليّات تأخذ القارئ من عمود الشّعر إلى الأفعال الإنجازيّة، فسؤال الشّعر لم يتحرّر من النّقّاد الذين يحاصرون ما يشتقّه الشّعراء من أكبادهم بما وضعوه من المقياس والمعيار.

وصاحب بلاغة "الانتصار" يشتغل على الكلّيّات والأنساق العامّة والمناويل المجرّدة ويبني تأويلات حول ثقافة "الانتصار". فالمقام النّقديّ، اليوم، لا يبتغي تحصيل ما انتهى إليه الصّوليّ، وإنّما إعادة التّفكير من داخل النّسق النّظري الذي بناه. ولقد انبنت في سياق القول القديم أصول أخرى تغيّرت مناويلها الإيحائيّة. فلقد أخبرنا النّقّاد عن مقادير الكلام الجميل بمصطلحهم.

لقد بنى صمّود قراءةً ليجعل الأوصاف الخاصة والاستقراءات النّصيّة مدخلا إلى الاستدلالات الكليّة في ضرب من الاشتغال النّظري.

وفي المقام النّقدي الحديث ليس مطلبنا أن نعرف الصّولي. وإنّما أن نعيد التّفكير من داخل الأفق النّظري الذي دبّره للانتصار وأن نُلقيَ أسئلتنا على مواقفه. ونحن محمّلون بالسّيميائيّات والتّداوليّة.

فبلاغة القدم -ونحن نحدّق فيها من مواقع تأويليّة حديثة-هي بلاغة المتوقّع وبلاغة البيان.

وإذا تغيّر القارئ تغيّرت إستراتيجيا القراءة، إنّ تأويليّتنا تكابد ضربا من طغيان الأشكال الماضية بكلّ مخزونها من الرّغائب والحاجات. فالشّكل ليس خيار كتابة، إنّه الصّورة النّاطقة عن قلق الكائن. والشّعر هو الأفق الأكثر رحابة للكائن حتى يجعل من العبارة صورة له.

وبإمكاننا، اليوم، أن ننقد التّمركز حول القدم بعد أن تبلورت منظورات معرفيّة قدّمت تعريفات جديدة لواقعة الكتابة ضمن الفعاليّات السّيميوطقيّة. فالانتصار هو وضع الاختلاف في منطقة محدودة وتابعة. وتوليد المعنى ليس إلا صورة من إستراتيجيّة مفهوميّة أُجريت عليه.

وإنّ الأمر يتعلّق بالثّقافة العربيّة الإسلاميّة التي خرجت من مرحلة مرنة منفتحة كثيرة الاحتمالات إلى إكراه الاختلاف على المثول أمام سلطة الواحد. فتغيّرُ الأشكال يعني قدرة الاختلاف على كتابة نصوصه.

وعلينا أن ندرك كيف نظرت هذه الثّقافة إلى نفسها وأن نرى ما وراء التّجارب من أصول وسُنن. فالصّراع دالّ على قراءات مختلفة للنّسق البلاغي والرّمزي. وإنّ بناء تأسيس بلاغي وشعري مختلف عن

بلاغة القدم باب للتّحوّلات العميقة في نظام الكتابة. فهذه الكتابة الجديدة قراءة أخرى للمحتمل البلاغي والتّصويري.

فلقد حاصر التّنظير القولَ الشّعري. لكنّ الكتابة الشّعريّة نفسها كانت تحاصر التّنظير وتتحدّاه. ولقد كان مبتغى صمّود في هذا المقام التأويلي أن يُرتّب حقل الإشكاليّات التي أنتجتها مقولة الانتصار في النّقد العربيّ وأن يضع شبكة استقصاء جذري للإشكاليّات التي تبنيها في الثّقافة العربيّة. فهذه حضارة تريد أن تؤصّل وتؤسّس و تحمل أقصى المختلف إلى المعنى الواحد.

وإنّ الأمر يرتبط بالمؤسّسة التأويليّة القديمة التي تؤوّل بالرّجوع إلى الأوّل وإلى الأوائل وتشغّل كلّ مفاهيمها ونقّادها للانتصار للقدم.

ولأنّ الكتابة فعل متوحّش، فإن حركة توليد المعنى كانت متمرّدة جارفة. وإنّ المعركة النقديّة قادها غلاة النّقّاد من أنصار القديم و أنصار الإحداث بكثير من الغضب والغيظ. وعلينا أن نعيد التّأريخ للمعركة. ويهمّنا وجهها الرّمزي مثل التّحوّل في بنية الذّوق وبنية المعنى الذي لم يعد ملكا للسُّنَنِ.

المعنى والاستفاضة على الألسن.

توليد المعنى نسق بلاغي مختلف لكن بلاغة القدم مازالت توجّه الأشكال وتحاول ردّ الاختراع إلى كونه قسما من أقسام عمود

البلاغة وتجهد للإقناع بأنّ صنعة أبي تمام تقع في مرتبة صنعة امرئ القيس وليست مرتّبة بخلاف مرتبة صنعة القدامى. وكان النّقّاد يدفعون النّاس إلى الإيمان -وربّما كانوا هم لا يؤمنون بذلك- بأنّ العمود يحدّد سنن الكتابة. فيستمرّ المنوال و تتأكّد السّنّة.

وإنّ النّقاد يقولون إنّ المولّدين أكثروا في ما أقلّ فيه القدامى، فزادوا وأسرفوا وبالغوا وأكّدوا وأوغلوا وأحالوا المعنى عن جهته وخرجوا عن الحدّ. ولكنّهم لم يستحدثوا ولم يصنعوا شيئا جديدا. وهذا أمر له دلالة على الحال وعلى شكل المحنة. فالمولّد متى خرج عن أصول العمود فَقَدَ السّنّد الذي يبني ذوقه ويصنع قرّاءَهُ، إنّنا أمام مولد طقس قراءة. وهذه المحنة التي أرّخ لها ابن طباطبا على نحو دقيق هي محنة السّبق، لكأنّ المعنى في مخبإ مّا والشّاعر يأخذ منه. ولذلك اعتقدوا أنّه إلى نفاذ. ومتى غيّر الشّاعر المناهج وفارق الرّسم بنى طقسا جديدا وفي مقالة النّقّاد ملاحظات وإشارات وتنبيهات تؤلّف متى جمعناها واستقرأنا دلالاتها منطقا يجمعها، من ذلك أن الآمدي يذكر أن ابن المعتزّ "*راغ عن موضع التّشبيه*" (الوساطة ص187) والقاضي الجرجاني يقول عن أبي تمام "*يريد البديع فيخرج إلى المحال*" (الموازنة ص21 وص 125).

وتكاثرت التّجارب والنّصوص. واتّضح التّغاير. لكنّ الشّعراء ظلّوا يحاكمون المولّد بحسب موافقته العمود أو مخالفته. وحصلوا على ظاهر القضيّة، فالصّراع إنّما كان حول المعنى وتشكيله، فقد قلّص استحكام النّسق دور الشّاعر وضربت السّنّة الطّريقةَ. فالمعنى

يكابد "الاستفاضة على ألسن الشّعراء" كما يقول القاضي الجرجاني (الوساطة 186) وجمّاع المشابهات كوّنت "مواقع مشابهة" (م. ن. 189).

وبخلاف ما سعى إليه النّقّاد بالصّراع والنّفوذ التّأويلي، فإنّ نصوص المولّدين قد ضايقت "سنن العرب في كلامها". وإن كنّا نجد عذرا لأبي زيد القرشي في كون الشّعر انتهى مع ذي الرّمة لأنّ أبا زيد لم يعمّر حتى يرى التّجارب في طور متقدّم، فإنّنا لا يمكننا التماس العذر لناقد شأن ابن طباطبا وقد واكب أقصى التّجاريب.

ورغم هذه الاقتضاءات النّظريّة المشدّدة على الشّعراء، فإنّهم كانوا ينتجون أبنية جمالية لم يحتسبها النّظر. فقد تغيّرت الطّريقة. فأنكرها النّقاد. ولمّا غلبت على الكلام طاردوها وحاصروها.

وإنّ النّقاد لعبوا لعبتين من لعب السّلطة كما يقول فوكو: FOUCAULT لعبة الاستبعاد ولعبة الاحتواء. فالشّعراء صاغوا أخيلة وصورا هي علامة على تغيّر نسقي عميق في قاعدة الكتابة الشّعريّة. والمشكل في كون النّاقد ليس في محنة. فهو يسمّي البلاغات الجديدة بأسماء قديمة مألوفة. ولا يرى الآفاق الجديدة للمعنى والوجود. ويحكم على كلّ اختراع بكونه مبالغة وغلوّا.

وإنّ حركة التّوليد رغبة جارفة في الخروج عن السّنن والمنوال والعمود في مرحلة أشكل فيها المعنى على طموح الكتابة. فالشّاعر

المحدث كان صاحب طريقة تخرج به من نفوذ القدم على مهجته ليكابد فعل الكتابة.

ولتوليد المعنى محتمل معنوي وتصويري. وعلينا أن نفهم السّياق الذي ظهرت فيه المعركة. فظهور الشعر المولّد دفع النقّاد إلى وضع سياق نظري لبلاغة الشّعر.

وإنّ فكرة توليد المعنى هامّة من النّاحية المبدئيّة قبل الوجه الإجرائي. فأن يفكّر شاعر في إحداث المعنى فهذا منزع له ما يبرّره في السّياق الثّقافي الحضاري. فالأشكال السّابقة ليست نهائيّة ومطلقة إذ يمكن نقدها ونقضها وبناء تأسيس بلاغي ولغوي مختلف عنها. والشّعراء -في مستوى عميق- ينقدون مبدأ السّبق والاعتقاد في أنّ المعاني أتى عليها الفحول وأنّ باب القول قد انسدّ. وهم يضعون تشريعا خطيرا مستحدثا للكتابة الشّعرية.

الصّراع الرّمزي على المعنى.

أعلن النّقاد أنّه لم يعد للقول باب، لكنْ أيّ باب هو؟! إنّه باب القدم، باب التّشبيه الذي "*لا يخرج الأشياء عن أحكامها*" بعبارة الجاحظ. فالمحدثون ابتكروا أبوابا أخرى. وأعلن النّقاد أنّ المتقدّم لم يترك للمتأخّر شيئا. فالشّاعر سيُحدث معانيه ولا يتخوّن كيانه ويبنيه في زمنيّة القدم. والنّقاد يرون أن الممكن الشّعري: البلاغي والتخييلي والمعنوى الذي كان بحوزة هذه الشّعريّة قد نفذ. وهذا لا يعني المولّد

بل هو ما جعل التّوليد ممكنا. فبلاغة المولّدين خرجت عن طرائق قديمة في قول المعنى. والمعركة مع القدامى معركة حول نظام المعنى و قوانينه، بما هي معركة رمزيّة ونظريّة.

صمّود منشغل بالنّظر لا يكشف الخصائص ويقف على الأوصاف فحسب، وإنّما المبتغى عنده أن يدرك القوانين الكلّيّة. وهذا الكتاب ناطق عن مشاغل وممارسات نصيّة.

وإنّ سياق الأحداث لم يَخْلُ من استرسال المنوال رغم منازع تغيير الرّسم وانتساخ السّنّة ومحاولة إحداث تغيّر شكلي عميق في القصيدة العربيّة ومغالبة السّنن بالاختراع. وإنّ متخيّل التّوليد والممكن التّخييلي طوّرا الشّعريّة، فحدثت تحوّلات تصويريّة. وانبنت مسالك لإحداث القول.

والبلاغة أهمّ مجال للمنازعة بين أنصار القديم وأنصار المحدث. فقد خرجت البلاغة من التّشبيه إلى الاستعارة التخييليّة ومن البيان وقرب المأخذ إلى الاستعارات البعيدة.

وإنّ المعنى شيء اختلج في نفس الشّاعر وعن شكل الاختلاج تشكّلت بلاغة جديدة. فتوليد المعنى مقتضى عميق جذري. وليس مجرّد بلاغات و ابتداعات.

وإنّ سلطة "الانتصار" التي اشتقّها النّقّاد من بقايا المنظور القبائلي كانت قد قامت تردّ جموح التّوليد وتدفع بالمخترع في شبكة

المشترك وتكيّف الإشكال بصورة تجعل ما اخترعه المولّدون لا يزيد عن إسراف في القول و مبالغة. وإنّ هذه الولادة الجديدة لإيحاءات اللّغة ونُظُمِهَا الرّمزيّة والتّصويريّة محكومة بالعمود. فهذه المغامرة الرّمزيّة الكبرى التي عاشها الشّعر عدّها النّقّاد شكلا من المجازفة بالسّنّة والأصل. وأنصارُ القديم ألقوْا بالتّجربة في هامش عمود القدم وقرؤوا الاختلاف على أنّه اختلاق. فأنْ يفكّر شاعر في إحداث قول مختلف عن أصول القدم فإنّ ذلك هامّ من الوجه المبدئي بما هو تفكير في إلغاء قوانين قديمة و هجرها.

وعلينا، في المقام التّأويلي الحديث، أن نمتلك جهازا نظريّا قويّا لتأسيس التّصوّرات الجديدة لعلاقة الإنسان باللّغة وأن نقوم بمراجعة نقديّة تأويليّة لأشكال الصّراع وطقوسه. فالانتصار محمّل برؤية الكون وأسئلة العصر والرّؤى المؤسّسة له. فهناك، في الحدّ الأقصى من الجهة الأخرى، يولد نظام لامتناه من إمكانات القول.

مقام السائل المعاصر

صمّود يقرأ الصولي وفي ذهنه نيتشه NIETZSCHE يفكّك الخطاب الفلسفيّ بنقد مفهوم الحقيقة. وفي ذهنه هيدغر HEIDEGER يفكّك الأنطولوجيا الكلاسيكيّة بنقد الخطاب الماورائي حول مسألة الكينونة وفي ذهنه ميشال فوكو يحفر في وقائع الخطاب وأنظمة المعرفة. ودريدا ينقد المعنى وفلسفة الحضور استنادا إلى مفاهيم مثل الإرجاء والأثر والاختلاف. ودولوز

DELEUZE في صراع التّأويلات ونصوص كثيرة من أصول مختلفة هيّأ بها مقامه النّظري وهو يشتغل على مقام حجاجي وعلى نشاط رمزيّ في مواجهة حرّاس البلاغة واللّغة والمعنى الذين يثبّتون سلطتهم و نفوذهم.

مشروع صمّود مشروع مفكّر بدأ بالمقام البلاغيّ في أطروحته حول التفكير البلاغيّ عند العرب وانتهى مفكّرا يشرّع للقضايا ويبني حولها تأويلات جديدة.

فالمقام الذي فكّر صمّود انطلاقا منه دون أن يعلنه يمتّد من السنّة والعمود إلى آخر المغامرات السيميولوجيّة في مرحلة ثورة أنظمة الكتابة و أشكالها.

وإنّ واقعة الانقطاع يصعب الحسم فيها، إنّها تحدث ساعة تكفّ ثقافة عن التّفكير على الأسس التي قامت عليها وتشرع في التّفكير بطريقة مختلفة. وهذا يقتضي أن تكون هذه الثقافة قد بلغت من الانفتاح درجة أن تقتدر على التّفكير من جديد وفي كلّ لحظة.

لكن ربما لم يأت زمن إثارة هذا الإشكال على نطاق عام. فالتّحوّلات الكبرى في تاريخ بلاغة الشّعر تحوّلات في مبدإ إنتاج المعنى وبنية الحلم وبنية الرّغبة، هذه المناطق التي ماتزال لدينا انفعالا مضنيا لم يجد بعد التّرجمة المفهوميّة لتدبيره وسياسته.

يتعلّق الأمر بالبلاغة وبالممكن التّصويري الذي هو بحوزة هذه البلاغة وبما أُنجز فيها وبما تحتمله، أي بغناها الرّمزي والخلاقي وطاقتها على بناء مستويات مخاطبة جديدة. فقد تغيّرت مواقع إنتاج المعنى. ورغم منازع "الانتصار" للقدم،فإنّ أفقا آخر للمعنى يندلع في الفضاءات الرّمزيّة للحداثة.

المقدّمة

اقترن اسم أبي بكر محمد بن يحيى الصولي (ت. 946/335) في تاريخ النّقد عند العرب بأبي تمّام (ت. 846/232) أكثر مما اقترن بأيّ شاعر آخر على كثرة ما عمل من أشعارهم وجمع من أخبارهم[1]. ومردّ هذا الاقتران ما قام من خلاف بين النّاس في شعره كان أساس حركة نقدية واسعة لعلّها أهمّ حركة في تاريخ النّقد القديم بما طرح المساهمون فيها من آراء في الشعر وما اعتمدوه من حجج لتدعيم الرأي وتثبيت الموقف أو لتضعيف الرأي المقابل وتهالك مواقف الخصوم. ولأنّ الخلاف لم يكن خالصا لمسائل نقد الشعر ومعرفة سبل الحكم فيه وإنّما كان في الأساس خلافا "إيديولوجيا" بين طريقتين في تعاطيه وتصوّرين لجودته وفضله: طريقة القدماء وطريقة المحدثين، انقسم النّاس في شأن أبي تمام، وهو رأس من رؤوس المحدثين وصاحب مذهب في الشعر المكتوب على طريقتهم عرف باسمه، إلى خصوم وأنصار. ولم يستطع القدماء الذين أخذوا أنفسهم بمقتضيات الخبرة والعلم والتزموا بقول الحقّ والعدل في الحكم أن يخلّصوا ما كتبوا من دواعي الهوى والميل إلى ما ترتاح إليه نفوسهم ويلائم ما علّموا

[1] انظر في ذلك مقال س. لدر (S.Leder) بدائرة المعارف الإسلامية IX/ 882 – 883, ومقدمة المحققين محمد عبده عزام و خليل محمود عساكر ونظير الإسلام الهندي لـ أخبار أبي تمام، بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980، ط. 3، ص ص. هـ ى.

وعليه نُشّؤوا[2]. ولقد عُرفَ عن الصّولي وقوفه في صفّ المدافعين عن أبي تمام وشعره دفاعا لا يخلو من واضح الميل وصريح التحيّز والردّ على الخصوم في لهجة فيها من الحدّة والعنف ما لا يتناسب وما أشاروا إليه، في شعر الشاعر، من وجوه العيب وأنواع السّقط[3].

ولسنا نهتمّ في عملنا هذا بتحليل مواقف الصّولي من شعر الشّاعر ولا يهمّنا أيضا أن نقف على تصوّره للشعر ومعاييره في تقويمه والحكم فيه. وإنّما يهمّنا أن ندرس الكيفية التي يبرز بها التعصّب والبلاغة التي تعبّر عن الانتصار وتسعى إلى ترويجه بين النّاس.

---

[2] انظر تفاصيل هذا في أطروحة محمود الرّيداوي: "الحركة النقدية حول مذهب أبي تمّام: تاريخها وتطوّرها وأثرها في النّقد العربي"، I/ في القديم، II/ في الحديث دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، وانظر خاصّة I/ 586 – 592 وهو فهرس بأسماء الكتب والمراجع المخطوطة والمطبوعة ومنها ورد كثيرا من النصوص التي تؤكّد ما قلناه كقول ياقوت الحموي في ترجمة الآمدي ووصف كتابه الموازنة: "وهو كتاب حسن، وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونُسب إلى الميل مع البحتري فيما أورده، والتعصّب على أبي تمام فيما ذكره (...) فإنّه جدّ واجتهد في طمس محاسن أبي تمام، وتزيين مرذول البتحري (..) ولو أنصف وقال في كلّ واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصّب بالوضع من أبي تمّام" (ص ص. 240–241).

[3] انظر كتاب الريداوي المذكور آنفا وقد خصّ المؤلّف فيه الصّولي بحديث مطوّل نسبيا (ص ص. 149 – 166) وفي مواضع كثيرة منه أشار إلى مظاهر تعصّبه ودفاعه عنه، كما ذكر في هذا الحيز حرجَ بعض أنصار أبي تمام من تخريجات الصولي لبعض الرديء من شعره، (ص ص. 163 – 165).

واخترنا أن نبحث عن صور هذه البلاغة في نصّ من النصوص التي كتبها الصولي عن أبي تمام وهو الرسالة التي وجّهها إلى مزاحم بن فاتك وأدرجها المحقّقون في صدر كتاب "أخبار أبي تمام"[4].

وسيتمّ البحث في قسمين: قسم أوّل نقوم فيه بتحليل ما بدا لنا دالاً في بنى الرسالة ومعانيها على الانتصار والتحيّز وقسم ثان نجمع فيه ما أوصلنا إليه التحليل من نتائج. ويندرج هذا العمل ضمن خطّة نسعى من خلالها إلى المساهمة في توسيع دائرة الدراسات البلاغية بإخراجها من طوق الأساليب والوجوه وما إلى ذلك من "تقنية" قد تكون مفيدة لكنّها تمنع الباحثين عن إدراك بلاغة الأجناس والأنواع والمواقف والرؤى. وهي بلاغات أهمّ وفعلها أعمق والحاجة إليها أمسّ.

ولقد سبق لنا أن نشرنا كتابا عن "بلاغة الهزل"[5] أوقفنا من فكر الجاحظ وتصوّراته على مسائل لم نقف عليها في دراستنا المطوّلة عنه في "التفكير البلاغي عند العرب"[6]

---

[4] من الباحثين من لم يشر في الرّسالة إلى التعصّب بل اعتبروها تحليلا نقديا لموقف الرّافضين طريقة المحدثين متمثّلة في شعر أبي تمام وأشاروا إلى ما في الرسالة من مقارنة دقيقة بين طريقة القدماء في كتابة الشعر وطريقة المحدثين. انظر: س. لدر، مقال دائرة المعارف الإسلامية المذكور آنفا.

[5] تونس: دار شوقي للنشر، 2002.

[6] منشورات الجامعة التونسية، ط. 1، 1981؛ ط. 2، 1994.

في تجلّيات "الانتصار"

تبرز المقاصد الحجاجية في هذه الرسالة من بداية الديباجة، فقد غلبت على معجمها صبغة المحاجّة والجدل إذ اختار الكاتِبُ أن يحدِّثنا من منِّ الله وتفضُّله عن توضيح سبيل حجته ودليل ربوبيته وشاهد وحدانيته. ونعتقد أن هذه الفاتحة على علاقة متينة بفحوى الرسالة وأنَّ اختيارها ليس من باب الصدفة. وفي هذا دليل على أنَّ المشروع الذي من أجله كتب الرسالة، وهو مشروع لا نعرف عنه شيئا في هذا المستوى من النص، أثَّر في اختيارات الكاتب وحمله على أن يختار ما اختار رغم ما جرت به العادة من فصل الحمدلة والدعاء عن جوهر النص بعبارة "أما بعد".

من بداية الرسالة حيث يذكر الصولي الافتراق في شأن أبي تمام ويُفصِّل القول فيه يستعمل في مخاطبة وليّ نعمته الذي وضع الرسالةَ من أجله فعلا اشتقّ منه البلاغيون بابا من أبواب الإنشاء غير الطلبي. وهو من الأبواب التي يظهر فيها موقف المتكلم مما يرى أو يقول واضحا وضوحا يدلّ عليه قرب الأقوال من الأحوال وفي حكاية حال المخاطب بهذا الفعل توجيه للقارئ ورسم للمسالك التي ستنتهجها الرسالةُ بل قد يرى فيها القارئ مصادرة لجزء مما ستتزيّن به من حرص على التفسير والتعليل من لدن عارف خبير من طراز المؤلّف. والفعل المقصود هو "عجبتَ" والعجب يكون في الغالب مما لا نفهم

أسبابه أو لا نتوقّع وقوعَهُ. وإن وقع أثار فينا حالة من الدهشة المترتبة عن المفاجأة والمباغتة.

ورشح عن تعجّب السائل عرضُ الصولي في بداية الرسالة، لموقفين متقابلين لا يجمع بينهما إلا الشطط والإفراط إن في الاستحسان والرفع من الشّأن أو في الاستهجان والطّعن وذكرِ المعايب. وبناءُ المواقف على التضادّ هو الذي يُحوِج إلى الحكومة وردّ الأمور إلى الاعتدال بالعلم والمعرفة. وهو الدّور الموكولِ مبدئيا لصاحب الرسالة. لذلك نراه يسارع فيعلن بصريح العبارة من الأول:

"(..) في تفضيله وذكر من عرفه فقدّمه، والاحتجاج على من جهله فأخّره وعابه (..) وأذكر جميع ما قيل فيه وإن كان قصدي تبيين فضله والرد على من جهل الحق فيه"[7]

ومن سياسة الكتابة في هذه الرسالة حرصُه على بناء صورته بإبراز معارفه وإلمامه بدقائق المسائل المتصلة بالحكومة في الشّعر ومن الأمور الموصِلة إلى ذلك عدم رضاه عن الفريقين جميعا من أوفاه حقّه ومن غبطه ذلك الحقّ من جهة العلم، وحشره إيّاهم في حيّز واحد: "*وما يتضمّن أحد منهم القيام بشعره، والتبيين لمراده؛ بل لا يجسر على إنشاد قصيدة واحدة له، إذ كانت تهجم -لا بد- به على*

---

[7] أخبار أبي تمام، ص. 5.

خبر لم يروه، ومثل لم يسمعه، ومعنى لم يعرف مثله"[8] وهو بذلك يسعى إلى تحقيق غايتين على الأقل:

-الرفع من قيمة ما اعتزم القيام به من جمع لأخباره وأشعاره وتدقيق لمعانيه وضبط لصيغه وأساليبه.

-التمكين لصورته لدى القارئ باعتباره عارفا بالمفترق فيه معرفة جامعة كاملة لم تتم لأحد سواه فيصبح ما سيقوله حجة لا تُردّ ولا مهرب من الإذعان لسلطتها.

ولَمِمَّا يلفت النّظرَ من بداية الرسالة حرص الصولي على التقريب بين حاله وحال أبي تمّام في ما يلاقيانه من سوء معاملة وظلم فقد أشار بصفة تكاد تكون صريحة إلى ذلك[9] حتّى لكأنّ دفاعه عن أبي تمام هو صورة من صور الدفاع عن نفسه.

ولتفسير ما يلحق الشعراء الكبارَ والعلماءَ الأخيارَ رسمَ صورةً عن وضع العلم والعلماء في عهده ذات وجهين متقابلين متنابذين وجهها الأول الأدعياء الذين ذهب في ظنّهم أن بروزهم رهين الاستنقاص من الآخرين. ولذلك تراهم لا يتورّعون لبلوغ مرامهم عن استعمال أساليب تشبه إلى حد كبير ما يستعمله الساسة لإخماد أصوات المعارضين لهم.

---

[8] اخبار أبي تمام، ص. 4.
[9] نفسه، ص. 6.

ووجهها الثاني التواضع ورفعة الأخلاق والوقوف في العلم عند حدود ما يُعرف وعدم التحرج من الإقرار بعدم المعرفة لما لا يُعرف. ونموذج هذا القسم الثاني شيخاه المبرِّد (ت. 898/285) وثعلب (ت. 903/291). وقد ضمّن الرسالة حديثا عنهما طويلا استطردَ منه إلى شكوى سوء المعاملة التي يلاقيها من المستفيدين من علمه الجاحدين لفضله[10].

وهذا النص المضمن لم يأت به صاحبه مجانا وإنما استطرد إليه لأنه يريد أن يخدم به مسألة رئيسية في الرد على الطاعنين إذ هم عنده، في الغالب الأعم، من الذين لا يعلمون، أو هم، في أحسن الأحوال، من الذين لا يسمح لهم علمُهم المحدود بتأكيد ما يُعبِّرون عنه من المواقف فيكتفون بالطّعن على العلماء وادّعاء ما لا يُحسنون.

ويتخذ من العلمين الممثلين لهذا الوجه الثاني وهما المبرّد وثعلب نموذجين لا يُجاريان وقطبين دونهما كل النجوم الزاهرة في ذلك العصر. وقد بُني النص الذي تحدّث فيه عنهما على المقابلة: فقد عدّد ما لم يبلغهما من العلم ونفى عنهما الزعم والادّعاء في ما لا يعرفان، إذ قال: "*وموضعهما مع ذلك عند الناس في علوّ الرتبة وجليل المحلّ، إذ لم يدّعيا ما لم يُحسنا ولا أجابا في الذي لم يعرفا*" (ص. 9)

[10] أخبار أبي تمام، ص ص. 6 – 13.

ويقول "*وليس أحد ممن أومأت إليه في زماننا هذا يَعْشُرُ، عند أعشق الناس له، ومن زين على قلبه في محبته والتعصب له واحدا منهما ولا يدانيه في حال*" (ص. 10).

ثم تأتي الجملة الاسمية المتضمِّنة الجار والمجرور الدال على الحال لإبقاء النص مشدودا إلى نفسها المسألة.

وهو يجاهر بما كان همسا وإيماء فيذكر نفسه في صيغة المتكلم ويتحدّث عما لحقه من جور وما ناله من هؤلاء الرهط الذين تحدّث عنهم (ص. 10).

-يذكرهم بالنكرة: "*قد تخرّمها قوم*"

-ويذكرهم بالاسم: "*أبو موسى الحامض*" كان يثلب الصولي ويكثر من عيبه والطعن على سائر أماليه.

ثم يذكر أنه استفاد من كتب بعينها

وقد خاض الصولي في بداية الرسالة في مآل ما هو بصدده من أخبار أبي تمام وأشعاره فقال: "*(..) لا يُنسَب ذلك إلي ولا يُعتَرف به لي*" (ص. 12). مع أنّ ما هو بصدد القيام به لا يقوى عليه أحد ولا هو في استطاعته لأنّه ناقد يبني نقده على معايير واضحة ثابتة، وعالم بالشعر يدرك أنّ ما يدور حوله من الأحكام من الأمور التي يختلف فيها الناس، كلّ بما رأى، وكلّ بما هو إليه أميل، لذلك

تراهم لا يتّفقون على مراتب الشعراء ويختلفون في أمر الكوكبة الواحدة منهم. بهذا علّل تقديمَه الفرزدقَ على رفيقيه جرير والأخطل بقوله: "*وإنما بدأت بالفرزدق لشرفه وقوة أسر كلامه وكثرة معانيه وجميل مذهبه(..) ولأنه يتقدَّم عندي الإثنين من طبقته في شعره أعني جريرا والأخطل. ولا أعيب من يقدم عليه، إذ كنا نجد أئمة من العلماء لهم فيهم آراء مختلفة وتقديم لبعضهم على بعض ولكنني في حيّز من يقدّم الفرزدق*"[11].

وبعد هذا التصوير لبعض أوضاع العلم والعلماء في عصره وما يكتنف تلك الأوضاع من علاقات معقّدة تتحكّم في الكثير منها الأهواءُ وتسيّرها المطامع والمصالحُ وهو تصوير يبقى مهمّا من جوانب كثيرة على ما فيه من نمطية وبناء على المشهور يصل الصولي إلى موضوع الرسالة الأصلي وهو تقديم جواب عن "خلاف بعض الناس في أبي تمام والأسباب التي وقع لها ذلك"[12]. وإذ تعلّق الأمرُ بالعرض وشرح الأسباب جاءت البنية بصريح العبارة بنية تفسيرية تطغى عليها أدوات التفسير وأساليبه وبدأ الحديث عن الفريق الأوّل بالإشارة إلى المنتمين إليه إشارة مبهمة: "*بعض العلماء*" لا تحدّد عددهم ولا تذكر انتماءهم وإن كان بدء الحديث بهم يشير إلى أهميتهم ورواج مقالتهم. وتستوقف القارئ في حديث الصولي عنهم أمور منها:

---

[11] أخبار أبي تمام، ص ص. 12 – 13.
[12] نفسه، ص. 14.

-جاء الفعل المتصل بأمّا مبنيا للنائب أو للمجهول "*ما حُكي*" والفعل في مادته اللغوية يدل على الرواية والنقل والنسج على منوالٍ والمحكي دائر حول اجتناب شعره وعيبه.

وينفتح في النص هنا أيضا قوس متركب من نفي ارتبط به مركب اسمي مفعول لأجله "*ولا أسمّي منهم أحدا لصيانتي لأهل العلم جميعا، وإبقائي عليهم، وحياطتي لهم*"[13] وفيه حرص على إبراز علو همّته وسموّ أخلاقه وإجلاله لمقامات العلماء على اختلاف مشاربهم ومتفاوت منازلهم يدل على ذلك الاشتمال الموجود في قوله "*جميعا*".

"*فلا تنكر أن يقع ذلك منهم*": جاءت بنية الخبر مصدّرة بالنهي على سبيل التفهّم ودعوة المخاطَب إلى أن يتّسع صدره ويتقبّل بشيء من العفو ما صدر عنهم وهو من باب إرخاء العنان والاستعداد للرد عليهم ردّا يبين عن ضيق أفقهم وتعصّبهم وخمول أذهانهم وجور أحكامهم.

وتبدأ الجملة التفسيرية بـ "*لأنّ*" في صيغة تقريرية لا تردّد فيها، صاحبُها عارف بشؤون الشعر ودقائقه، مُلمٌّ بمراحله وأطواره، متمكّن من طرق تمييزه ووجوه فضله متمكّن من عيوبه ومما يَشينُهُ ويُعاب به.

---

[13] أخبار أبي تمام، ص. 14.

وتستمرّ هذه البنية التفسيرية الأولى من قوله *لأنّ أشعار الأوائل*" (ص. 14) إلى قوله "*أحد*" (ص. 15).

وتقوم على محورين رئيسيين إليهما ترتدّ كل وجوه الاحتجاج. المحور الأول ما سمّاه "*أشعار الأوائل*" والمحور الثاني ما سمّاه "*شعر المحدثين*"

- المحور الأول، وفيه إبانة عن طرق تعامل العلماء به معه وهو تعامل يقوم على الاتباع والتعويل على جهد السلف من المبرّزين في درسه. ولذلك كثرت العبارات الدالة على التعويل على جهد الغير من قبيل: "*ذللت لهم*" *(الانقياد)/كثرت لها روايتهم (جريان)/ أئمة مَاشوها لهم (سهلة لا تتطلب جهدا) / راضوا معانيها (التّحكم).*

فكانت السبيل مُمَهَّدَةً ولم يكن يطلب من سالكها أكثر من التقليد في تفسير الشعر وفي استجادة جيده وعيبِ رديئه.

وسدًّا لإمكانية إحراج طريقته في الحجاج بالإشارة إلى كثرة الشعر والشعراء في الأوائل صاغ حكما عامّا قرّر فيه أنّ الخبرة ببعض ذلك الشعر كافية لمعرفته بأكمله لأنَّ "(..) *ألفاظ القدماء وإن تفاضلت فإنّها تتشابه وبعضها آخذ برقاب بعض فيستدلّون بما عرفوه منها على ما أنكروه ويقوون على صعبها بما ذلّلوه*"[14].

[14] أخبار أبي تمام، ص. 14.

. المحور الثاني: شعر المحدثين: *"لم يجدوا فيه أئمّة كأئمّتهم ولا رواة كرواتهم" / "لم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به" / "قصّروا فيه" فكانت النتيجة مزدوجة إذ* "جهلوه" فأدى بهم الجهل إلى المعاداة، *"فجهلوه فعادوه"*.

والفقرة كلّها موجّهة حجاجيا لبلوغ هذه النهاية التي ترتبط فيها العداوة بالجهل حتّى ينفتح الباب على الجاهز من النصوص التي تؤكّد هذه العلاقة. وبعض هذه النصوص من الثقافة العالِمة ومن أصل من أصولها المؤسِّسة وهو القرآن. فقد جاء التصريح بذلك في الآية التاسعة والثلاثين من سورة يونس: "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ" وبعضُه من الثقافة الشعبيّة المخزونة في الأمثال، من ذلك: "الإنسان عدوّ ما جهل" ومن ذلك أيضا "ومن جهل شيئا عاداه".

وبموجب هذه العادة التي اشتقّتها الثقافة الشعبية من تجربة طويلة، ومعرفة بسلوك الناس، تختلط المقاييس وتتداخل الأحكام وتكثر المواقف التي لا وظيفة لها إلا الحجب والاتّقاء لاسيما عند أمثال الرهط الذين ذكرهم وأطال في التشنيع على أخلاقهم العلمية، الذين إن سئلوا عن شيء قصّروا فيه ولم يحيطوا به علما استبدلوا ما كان يجب أن يكون إقرارا بالتقصير بالطعن والاستنقاص. وهكذا يكون الطعن في حقيقة الأمر غطاء يغطّي به هؤلاء نقصهم وتقصيرهم هم.

فهو طعن بقصد الاحتماء وإبعاد الشبهة لتعلّق أصحابه من العلم بمفهوم أبعد ما يكون عن العلم الحقيقي الذي سبق لصاحب الرسالة أن ذكر نموذجه الأسمى في شخصي المبرّد وثعلب[15].

ولأنهم لا يتمتّعون بالأخلاق العلمية الكافية للإقرار بعدم المعرفة تراهم يدافعون عن أنفسهم بالتهجّم على غيرهم، وقد خُصّ أبو تمام بالطّعن لسببين أحدهما له فيه دخل وهو أنّه "أصعبهم شعرا"[16]. والأمر الثاني لا دخل له فيه ولا علاقة له بتجربة الشعر وهو كونه "*أقربهم عهدا*"[17].

ثم يأتي الاستفهام مكرّرا ليرفع الاستغراب من فعلهم ويؤكّد مطابقته لما هم عليه من جهل وسوء تقدير، ويتجلّى ذلك في قوله: "*وكيف لا يفرّ إلى هذا من يقول اقرؤوا على شعر الأوائل حتّى إذا سئل عن شيء من أشعار هؤلاء جهله وإلى أيّ شيء يلجأ إلاّ إلى الطعن على ما لم يعرفه*" (ص. 15) فالجامع بين هذين الاستفهامين نابع من ذكر الجهل في أولهما مع نفي المعرفة في ثانيهما.

والملاحظ أنّ هذه الفقرة مليئة بالألفاظ والتراكيب الدّالة على موقف المتكلم منهم ومن أبرز التجلّيات الدّالة على ذلك الفعل

---

[15] أخبار أبي تمام، ص ص. 7 – 9.

[16] نفسه، ص. 15.

[17] نفسه، الصفحة نفسها.

"فرّ" مقترنا بلفظ "*العالم*"، فهو فعل ذو شحنة سلبيّة تهجينيّة يؤيّدها الفاعلُ "*العالم*"، إذ لم يأت في حديث الناس عن العلماء أنّهم يفرّون عند المنازعة بل هم يواجهون ويُفسّرون ويُقنعون. فالفرار إعلان عن الخيبة والهزيمة وأمارة الإفلاس وسوء المنقلب. وقد كرّر الفعل في صيغة الاستفهام المذكورة آنفا، قصده من ذلك أن يؤكّد الفعل لديهم في شيء من الاستخفاف والسخرية.

نلاحظ أيضا أنّ الفرار جاء نتيجة الجهل والحال أنّ سلاح العالم في معركة كهذه العلم فإذا ذهب خسر العالم المعركة وولّى هاربا يبحث عن ملجإ هو موضوع الاستفهام الثاني، "*وإلى أيّ شيء يلجأ*". ولكن إمعانا في الادّعاء وتعلُّقا بعلم هو في حقيقته جهل جاء اللجوء مرتبطا بالطعن مقصورا عليهم بحكم البنية "*إلاّ إلى الطعن*".

وتتّجه هذه الفقرة من الرسالة بعد تمتين العلاقة بين السلوك وسببه أو أسبابه نحو البنية الشرطية الدّال معناها على الامتناع والاستحالة تثبيتا لصاحب الرأي في بعده عن فعل الشرط "*لو أنصف*"، ولو تحقّق ما بني على استحالة الوقوع لَكانت جملة الجواب في إمكانه لـ"تعلّم". ونلاحظ أنّ التعلّم مرتبط بالمصدر المشار إليه بالجارّ والمجرور "*من أهله*" ومن ثم كان "*متقدّما في علمه*".

ويرد أسلوب السخرية بعد ذلك إمعانا في إبراز نقائص هذه الفرقة ويتنزّل في مقام القفل لهذه الفقرة من الرسالة، ويتجلّى نفس

السخرية اللاذعة في تذكير الكاتب بما هو معلوم مشهور: فالتعلّم غير محظور على أحد ولا يُخصّ به أحد. وفي نطاق هذا القفل يستشهد الصولي بخبر دالّ على تغيير الرأي بالتعلّم، فقد طلب أبو العبّاس المبرّد من بني نَيْبَخْت أن يختاروا له من شعر أبي تمام شيئا (ص. 15). وفي حكاية هذا الخبر حجاج بالمثل إذ يصير فعل المبرّد سلوكا ينبغي أن يُقتدى به وذلك كفيل بإخماد كلّ الأصوات التي شنّعت على أبي تمام وعلى تجربة الشعر المحدث لمجرّد الجهل بها وصعوبة الاهتداء إلى خصائص بنائها وأساليب تصويرها ومذهب أصحابها في إتيان المعاني.

وبعد إيراد خبر المبرّد مع بني نوبخت يشير صاحب الرسالة كالمعتذر إلى ضرورة تأجيل الحديث عن الصنف الآخر من الطاعنين لأخذه في فصل: "*عن لي في ذكر المحدثين*"، والظاهر من كلام الصولي أنّه جاء بدون سابق تخطيط وطارئا لم يقرأ له حساب ولكنْ هل هو فعلا اعتراض وشيء ظهر لصاحبه ولم يكن في الحسبان ؟ وهل هو أجنبي عن الاحتجاج؟ وإلاّ فما دوره ؟ أليس لكلّ هذا الحديث الطويل من دور[18] ؟

إنّ كثيرا من الدّلائل تؤكّد أنّ تنزيل الفصل في هذا الموطن من الرّسالة لم يتمّ عن شيء عارض لم يسبق التفكير فيه وأنّ المادّة التي ضمّنها إياه ليست استطرادا من قبيل التّرف أو المباهاة

---

[18] اخبار أبي تمام، ص ص. 16 – 28.

بالخبرة والعلم وإنّما هي مذهب في الدّفاع عن أبي تمام وطريقة في الاحتجاج لشعر كان هو المقدّم فيه وصاحب مذهب يُتّبع.

فالفصل جاء مباشرة بعد اقتناع "*إمام من أئمّة الطّاعنين عليه عندهم*"[19] بأنّه شاعر مُحسن مجيد عندما فُسّر له شعرُه ومُهّدت أمامه السّبيل إلى معانيه. فتكون وظيفة الفصل القريبة الواضحة تعريفا بهذا الشّعر وتقريبا له من الأفهام والأذهان. ولتحقيق هذه الوظيفة وحتّى يؤكّد أنّ هذا الشّعر عربيّ خالص النّسب بني أغلب الفصل على معان وأساليب جاءت عند القدماء والمحدثين وجرت في أشعارهم. فكان يبدأ بما قالت القدماء ويرسم مآل ذلك المعنى في الأشعار إلى زمانه وغايته من ذلك، في ما بدا لنا، تأكيد ترابط حلقات هذا الشّعر والإقناع بأنّ المحدثين لم يأتوا بدعا من القول يُطَّرَح وكفرا بالسّنَن تُمنع نصوصه وتُخرّق.

كلّ ما في الأمر أنّه شعر محكوم بضرورة التطوّر لأهله من الخبرة ما لم يتوفّر للأوائل، لهم خبرة السّماع بما "*وصفوه هم [القدماء] مشاهدةً وعانوه مدّةَ دهرهم من ذكر الصّحاري والبرّ والوحش والإبل والأخبية*"[20] ولهم خبرة العيان التي تفتح نصوصَهم على ما يرونَ ولم يرهُ من جاء قبلهم فتتّسع معانيهم ويرقّ كلامهم وتسلس ألفاظهم ويكثر بديعهم. وقد عبّر عن مفهومَيْ التطوّر وتراكم الخبرة

---

[19] أخبار أبي تمام، ص. 16.
[20] المصدر السّابق، ص. 16.

وصحّة النّسب بجملة من الاستعارات المهمّة التي تردّنا إلى تصوّرهم للكتابة وارتباط ذلك التصوّر بحياتهم. فالمتأخّرون من الشعراء سفن شراعية تسير بالرّيح التي ينفخها القدماء في تلك الأشرعة. فالقوّة الدّافعة لكتابة المحدثين كتابة القدماء التي تمكّنهم من الانزلاق على سطح الكتابة الأملس دون تعب، والمتأخرون صاغة أو مذيبو معادن يصبّون ما أذابوا في قوالب وأشكال هيّأها لهم القدماء فيكفيهم ذلك عناء البحث عن أشكال جديدة ويثبّت قدمهم في سنّة تؤكّد صحّة انتسابهم إليها ونسجهم على هديها، والمتأخّرون كَتَبَةٌ على اللوح أو على القرطاس مدادهم التي يسوّدون بها نصوصهم هو لعاب الأقدمين. والمتأخّرون كالبدو الرّحّل ينتجعون كلام القدماء كما كان هؤلاء ينتجعون الكلأ. وكلّ هذه الاستعارات تبني عند المحدثين ثقافة السّماع ويزيدون عليها بتأخّر مجيئهم وتبدّل الأزمنة والأوضاع والإيمان العميق بتطوّر ثقافةَ العيان.

فلا غرابة أن يتفوّقوا عليهم ويأتي في شعرهم من المعاني ما لم يتكلّموا به وأن يتوسّعوا ويحسّنوا في ما جاء عند الأقدمين إيماءً. لهذه الأسباب لم يجد الصّولي أيّ حرج من تغليب المحدثين على القدماء في كلّ معنى ذكره أو أسلوب أشار إليه انسجاما مع هذه الرؤية التي عبّر عنها في نصّ لعلّه من أوفى النصوص في المقارنة بين القدماء والمحدثين ومن أكثرها انتصارا لتجربة الشعر المحدث انتصارا بناه صاحبه على إيمان عميق بالتطوّر وبتأثير الزّمن وتراكم الخبرة في الكتابة.

أعلم - أعزّك الله – أنّ ألفاظ المحدثين مذ عهد بشّار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معان أبدع، وألفاظ أقرب، وكلام أرقّ، وإن كان السّبق للأوائل بحقّ الاختراع والابتداء، والطّبع والاكتفاء؛ وأنّه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبّهوه عيانا، كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم مشاهدةً (..) فهم في هذه أبدا دون القدماء، كما أنّ القدماء فيما لم يروهُ أبدا دونهم (..) ولأنّ المتأخّرين إنّما يجرون بريح المتقدّمين، ويصبّون على قوالبهم، ويستمدّون بلُعابهم، وينتجعون كلامهم، وقلّما أخذ أحدٌ منهم معنى من متقدّم إلاّ أجادهُ. وقد وجدنا في شعر هؤلاء، معاني لم يتكلّم القدماء بها القدماءُ ومعاني أومأوا إليها، فأتى بها هؤلاء، وأحسنوا فيها، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزّمان والناس له أكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثّلهم ومطالبهم"[21].

ثم يبدأ الحديث عن الصنف الثاني (الصفحة 28 من الطبعة المذكورة)

والميزة الأساسية الواسمة لأصحاب هذا الصنف الثاني كامنة في أنهم يجعلون عيب أبي تمام وسيلة لنباهة الذكر واستجلابا للمعرفة، ويفصّل الصولي القول في هذا التعليل بوصف أصحاب هذا الموقف، إذ هم من الخاملين الساقطين، فتدعو الحاجة إلى الخروج من وضع الخمول إلى أن يؤلّفوا في الطعن كتبا

[21] أخبار أبي تمام، ص. 17.

يستغوُون بها قوما فيَسْتَعْدُونَهُمْ على الشاعر المطعون عليه، ويتوسّع الصولي في عرض هذا الرأي عرضا مبنيا على آلية التقابل بين الشحنة الإيجابية والقطب السلبي الذي تتشدّ إليه تلك الشحنة ويتجلى ذلك من خلال الرسم الآتي:

<table dir="rtl">
<tr><th colspan="2"></th><th colspan="2">الشحنة الإيجابية (+)
[المقصد المنشود]</th><th>القطب السلبي (-)
[الواقع الموجود]</th></tr>
<tr><td rowspan="3">لِـ</td><td colspan="3">يُـعـرَف</td><td>بخلاف الناس</td></tr>
<tr><td rowspan="2">يجري له</td><td colspan="2">ذِكر</td><td>في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة</td></tr>
<tr><td colspan="2">مكسَب</td><td>بالخطإ إذ حُرمه من جهة الصواب</td></tr>
</table>

وتأتي رواسب الثقافة في هذا السياق متجسِّمة في الأقوالِ العامّة التي لا يُعرَف قائلها وفي الأشعار والأخبار لتؤكّد العلاقة القائمة بين المخالفة وجريان الذكر، فتجلى ذلك في استشهادات الصولي: "*وقد قيل: خالفْ تُذكَر*" و"قال آخر: إذا فاتك الخير فارفع علما في الشر" (ص. 28)، وربط ذلك بأشعار منها ما ذكر قائله ومنها ما وردت مجهولة النسب. وقد ختم كل هذه الفقرة بما يمكن أن يكون نموذجا في هذه القاعدة وفي شيء من التعريض بالطاعنين على أبي تمام وهو قول الإعرابية لابنها "*إذا جالستَ فأحسنتَ أن تقول كما يقولون فقلْ وإلاّ فخالف تُذكَرْ ولو تعلّق في عنقك أير حمار*"[22].

---

[22] أخبار أبي تمام، ص. 29.

ويأتي بعد هذا كلّه تفصيلُ ما عابوا بذكر شيء منه. وإمعانا في التقليل من شأنهم ونسبة ما قالوه إلى التهوّر الناتج عن الجهل، جعل الكاتب فاعل "عابَ" جملةً موصولة هي "*من لا يدري*"، تجلى ذلك في قوله: "*وسأذكر شيئا مما عابه عليه من لا يدري*"[23]. ويهمّنا هذا الشكل من الاحتجاج لأنّه يخرج عن الاعتبارات العامّة المتّصلة بعلم الشعر ومن مواقف التحسين أو التقبيح التي تتحكّم فيها عواملُ مختلفة إلى أمثال مضبوطة وأسباب دقيقة.

وأوّل مثال ذكره جاء في قصيدة تعتبر من أجود ما قال أبو تمام بإجماع النقّاد على اختلاف مذاهبهم وقد جمع الصولي كل ذلك في قوله: "*عابوا قوله في قصيدته التي أحسن فيها كلّ الإحسان*" (ص. 29)، وهذا الحكم الإيجابي سيُسهّل الأمر على الصولي في إيجاد المذهب في الردّ على الطاعنين، كما سنُبرز، والبيت المقصود هو قول أبي تمام: [بسيط]

تسعونَ ألفًا كآسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أعمَارُهم قَبلَ نُضجِ التِّين والعِنَبِ

وجاء الردّ مبنيا على هذا النحو على نوعين من الحجج:

- الحجّة الأولى ذات شقّين:

---

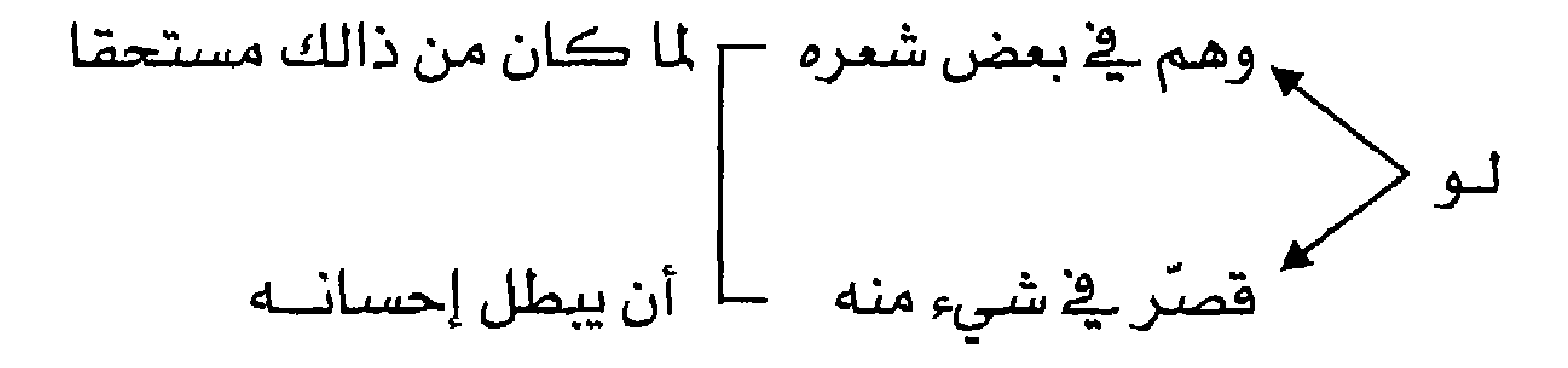
[23] أخبار أبي تمام، ص. 29.

أ. أن يكون سبب عيب البيت من أجل "أنّ التين والعنب ليس مما يُذكَر في الشعر وأنّه مستهجَن" (ص. 30) فكان الردّ بالرّجوع إلى الأشعار السّالفة ما نسب منها إلى الشعراء أو ما جاء في شواهد النّحاة فذكر بيتا لابن قيس الرّقيات (ولد 642/29) وشطرين للفرّاء (ت. 822/207) (ص. 30) واتّخذ الصولي من البيتين حجة يدحض بها مقالة الخصم وشاهدا على جريان ثنائية التّين والعنب في الشعر.

ب. أن يكون سبب عيب البيت أنَّ أبا تمام خص التين والعنب دون غيرهما، وكان ردّ الصولي على هذا النحو في الاستقصاص مبنيا على الاحتجاج بالخبر المتعلّق بفتح عمّورية، ومحصّله "أنّ الروم قالوا وقد أناخ عليهم المعتصم: والله إنّا لنروي أنّه لا يفتح حصننا إلا أولاد الزّنا وإن هؤلاء أقاموا إلى زمان التين والعنب لا يفلت منهم أحد. فبلغ ذلك المعتصم فقال: *أمّا إلى وقت التين والعنب، فأرجو أن ينصرني الله عزّ وجلّ قبل ذلك؛ وأمّا قولهم "لا يفتحها إلاّ أولاد الزنا"* فما أريد أكثر ممّا معي منهم. قال أبو مالك فأظنُّ أنّ أبا تمام ذكر هذا المعنى في بيته" (ص. 31)

استمدّ الصولي في هذا النص الحجّة من مطابقة الشعر للوقائع وأخذ الشاعر نفسه بتقييد جزئياتها. لذلك لا تثريب عليه لأنّه أراد أن يحاكي الواقع تمام المحاكاة ويجري في بناء الشعر على الحق والصّدق.

ـ وأمّا الحجّة الثانية وهي أهم من السابقة فتقوم على طرح مفهوم التفوّق والتساؤل عن شروط استحقاق القبول والرضا، وقد بنى هذه الحجة على الافتراض البعيد وهو رغم بعده يحمل شيئا من الإقرار. ويتجلى ذلك في بنية الشرط المتجسّمة في الصياغة الآتية:



أبرز ما يلاحظ على هذا القول مبالغة واضحة من جهة جملة الشرط التي باعد بها الصولي بين أبي تمام وبين الوهم والتقصير مباعدة كادت تصل حدّ التنزيه وهذا لا يمكن أن يتمّ لشاعر كما سيؤكّده هو نفسه عند إشارته إلى سقطات إمرئ القيس ومبالغة من جهة جواب الشرط المقصود منها التشنيع على الطّاعنين وإيهام القرّاء أنّهم سلبوا أبا تمام كلّ مزيّة ومنعوه كلّ تفوّق. والحال أنّ عيبَ بيتٍ أو طريقة في القول لا ينجرّ عنه بالضرورة تجريد الشاعر عن كلّ مزيّة وسلبه كلّ فضل.

وقد بني معنى جواب الشرط على قياس الموقف من أبي تمام على الموقف من الشعراء القدامى والمحدثين فقد عيبتْ عليهم أشياء، ولم يسلم من ذلك رأسهم امرؤ القيس و"*ما سقطت بذلك مراتبهم*".

والنتيجة الطبيعية لهذا القياس بروز التعجّب والاستنكار من موقف هؤلاء الطاعنين وتفسير ذلك بـ"*شدّة التعصّب وغلبة الجهل*"، وقد تجسّم هذا المسلك في التفسير في أسلوب الاستفهام البارز في قوله: "*فكيف خصّ أبو تمام وحده بذلك لولا شدّة التعصّب وغلبة الجهل*"[24].

ولا بدّ من أن نقف هنا عند ما يسم هذا المذهب في الاحتجاج وما يكشف عنه من تصوّرات ومواقف تبنيه وتشدّه.

فالشاهدان الشعريّان اللذان ساقهما الصولي لبيان جريان الكلمتين المتنازَع فيهما في الشعر غير مقنعَين وفيهما شيء غير قليل من التمحّل والمغالطة بل والسقوط في ما يمكن أن ينقلب استنقاصا من قدر أبي تمام من حيث لا يدري الصولي وذلك للأسباب الآتية:

- إنّ إيراد بيت من الشعر لشاعر وإن كان ابن قيس الرقيات ذكر فيه التين والعنب لا يعني البتّة أنّه من الأبيات التي يمكن عدُّها من الشعر الجيد الذي لا طعن في قيمته الأدبية ونستبعد أن يكون ناقد من النقّاد استحسن هذا البيت أو خصّه بمنزلة.

---

[24] أخبار أبي تمام، ص. 32.

وسكوت النقّاد عن هذا عند ابن قيس الرقيّات والطعن على أبي تمام فيه يعود لا شكّ إلى تفاوت قيمة الرجلين وأنّ أبا تمام حتّى عند من عابوا شعره وطعنوا على بعضه شاعرٌ كبير شغلهم واضطرّهم إلى الاهتمام به وإن تحوّل ذلك الاهتمام بحثا عن المطاعن. فمن يكون ابن قيس الرقيات إزاء حبيب بن أوس ؟ والغريب أنّ الصولي لم يفطن إلى هذا ولم يجُل بخاطره أنّه على هذا النحو الذي سلكه باستحضار بيت ابن قيس الرقيات يستنقص من قيمة صاحبه فينتهي به الاحتجاج إلى نقيض ما إليه قصد وإيّاه أراد.

ويتأكّد السّهو بالشّاهد الثاني وقد أنشده لغوي ليس حريصا على قيمة الشعر حرصَه على ملاءمة الشاهد للمسألة المدروسة ثم إنّه شعر مشطّر لا يرقى إلى مرتبة الشعر الحق وقد ورد الشطران عند ابن منظور في اللسان في مادة "ع.ن.ب".

ففي الاحتجاج بالشواهد الشعرية مغالطة لأنّ الصولي حوّل المسألة عن وجهتها الحقيقيّة، وهي وجهة القيمة، إلى وجهة الاستعمال فالقضية ليست مناسبة بين معجم وشكل أدبي أو نهج في الكتابة وإنّما في القيمة الأدبية والفعل الشعري المترتّب عن ذلك الاستعمال.

أمّا الطرف الثاني من الحجة الأولى وفيه الإجابة عن *"لم خصهما [التين والعنبَ] بالذكر"*[25]؟ فلا يخلو هو أيضا من تمحّل.

---

[25] أخبار أبي تمام، ص. 31.

فلئن كانت كثير من التصوّرات تطابق بين الشعر والواقع وتعتبره ديوان حياة الناس وما يجدّ فيها من وقائع ويملؤها من أحداث فإنّ هذه التصوّرات، زيادة على كونها لم تعد غالبة زمن الصولي، لم تجعل تلك المطابقة من مآتي الحسن في الشعر أو بعبارة أدقّ لا يستمدّ الشعر قيمته الفنيّة من حديثه المباشر عن الواقع.

أمّا الحجة الكبيرة الثانية فهي تتبني على مسلمتين ضمنيتين:

أولاهما التسليم بأنّ الشاعر، مهما كانت مرتبته، لا يقدر على الإجادة في كل ما يقول، ويمكن أن نصوغ هذه المسلمة بطريقة أخرى مؤدّاها أنه "*لا يخلو شعر كبار الشعراء من موطن عيب ومطعن*". ونتيجة لذلك يكون أكبرهم عرضة للتقصير والوهم يستوي في ذلك القدماء والمحدثون.

وثانيتهما أنّ ما في شعرهم من عيوب لا يسقط مراتبهم ذلك أنّ حسناتهم تغلب على سيئاتهم.

وبناء على هاتين المسلمتين "*(..) قد عاب العلماء على إمرئ القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين أشياء كثيرة أخطأوا الوصفَ فيها، وغير ذلك مما يطول شرحه فما سقطت بذلك مراتبهم*"[26].

---

[26] أخبار أبي تمام، ص. 32.

إذا كان هذا هو المشهور المألوف لدى الناس، الجاري بينهم، فلماذا لا يجري هذا على أبي تمام، ويكون هذا البيت من السقطات التي لا تنقص من قيمة الشاعر ويوفّر الصولي على نفسه عناء الاحتجاج ؟

جواب الصولي هو أنّ النقّاد العائبين الطاعنين خرجوا في حالة أبي تمام عن المسلم به المشهور وكالوا شعره بمكيال أملته عليهم "شدّة التعصّب وغلبة الجهل".

وفي نصّه جملة تختزل الأساسَ الذي بنى عليه ردّه على هؤلاء الطاعنين، وهي قوله: "*ولو وهم أبو تمام في بعض شعره، أو قصّر في شيء منه لما كان ذلك مستحقّا أن يبطل إحسانُه*". جاء الوهم والتقصيرُ عند الحديث عن أبي تمام في بنية شرطية يغلب عليها كما ذكرنا معنى الافتراض البعيد والذهاب بالأمور إلى المنتهى من باب التسليم للخصم تنشيطا للنقاش وترقّيا في سلم المحاجّة في حين جاء العيب في المقيس عليه أو المشبّه به تقريريا، في قوله: "(..) *أشياء كثيرة أخطؤوا الوصفَ فيها*" وهو يتحدث هنا عن إمرئ القيس "*ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين*" ويؤكّد التقريرَ بالتنويع والتكثير في قوله: "*وغير ذلك مما يطول شرحه*". فالتنويع بالغيرية والتكثير بصريح عبارة الموصول "*يطول شرحه*"، ومع كل ذلك لم تسقط مراتبهم ولم يشكّ في براعتهم.

فإذا كان القليل المبني على الشرط البعيد يبطل الإحسان متى تعلّق الأمر بأبي تمّام وكان الكثير المتأكّد المتنوّع لا يسقط المراتب متى متعلّق بغيره. تولّد الاستفهام استنكارا للحيف ووصفا للحكومة بالتعصّب وغلبة الجهل: "*فكيف خصّ أبو تمام وحده بذلك لولا شدّة التعصّب وغلبة الجهل*"[27].

يبدو الصولي هنا متعصّبا لأبي تمام يصنع خطاب الولاء والانتصار ولا يصنع الحكم النقدي حتى إنه يبني دفاعه على مغالطات بيّنة ومعلومات لا تستقيم متى قارنّا بينها وبين ما احتفظت به أمهات الأدب عن هذه المواقف.

وأوّل مظاهر الانتصار البنية التي أشرنا إليها والتي يكون بموجبها ما في شعر غيره منها (العيوب)، وليكن امرؤ القيس، إقرارا متأكّدا.

ومن الانتصار أيضا، بناء النصّ على التناقض بين "الجريرة" و"الحدّ". فالوهم والتقصير المفترضان الممتنعان أدّيا إلى إبطال الإحسان والكثير المتأكّد المتنوّع لم يسقط لأصحابه مرتبة.

صحيح أنّ العلماء بالشعر أشاروا في ما أشاروا إليه إلى سقطات الشعراء وعيوب شعرهم بل إنّ منهم من اتّخذ من تعقّب ذلك وكده فألّف فيه الرسائل والتبيانات، ولكنّهم كانوا يعرفون

[27] أخبار أبي تمام، ص. 32.

معايير الإحسان وموازينه، وما قُسم للمجيدين من تلك الموازين والمعايير مدركين، أسرار صناعة الشعر وعمله، مقدّرين ما يكتنفها من صعوبات وما يُقسم لكل شاعر شاعر منها. فلم تتأثّر حكومتهم في الغالب بما لا مهرب منه، ولا محيد عنه، لا سيما إن كان لا يمسّ ما يجب أن يستقيم للشاعر في الأصل.

فمن أبطل إحسان أبي تمام ؟

إنّنا متى استعرضنا المواقف الكبرى منه إلى زمن الصولي لم نقف على من أنكر فضله جملة، وعاب شعره بدون تمييز. ولم يجرؤ أشدّ مخاصميه على ذلك إلا أن يكونوا نكرات لم يحتفظ تاريخ الشعر بأسمائهم. زد على ذلك أنّ أسباب العداوة لم يكن مصدرها الشعر، وإنّما كانت من خارج الشعر، أو مما يقع بين الناس عندما تجمعهم صناعة واحدة وتحرّكهم مطامع واحدة.

لا جدال في أنّ أبا تمّام أحرج كثيرا من النقّاد بعدم جريانه في ما يقول ويكتب على ما ضبطوه للفعل الشعري من رواسم، ولكنّه كان يحرجهم أيضا لا ببنية نصوصه وطريقته في إثبات البديع وإنّما بعدم احترامه للمناسبات واللياقات في فعل التخاطب ذاته. ولا أظنّ أنّ الصولي يفرّق في المثال الثاني الذي ساقه (ص.32) بين العيب المتأتّي من اللفظ والعيب المتأتّي من التلفّظ.

ولا ينفع في الدّفاع عن أبي تمّام إذ يقول: [الكامل]

مَا زَالَ يَهْذِي بالـمَوَاهِبِ دَائِبًا   حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ مَحْمُومُ

الاستشهادُ بشعر لأبي نواس (ت. 813/198) والبحتري (ت.897/274) ذهبا فيه مذهب أبي تمّام. فالعيب المشار إليه هنا لا علاقة له بالصياغة الشعرية وصورة القول، وإنّما من الخروج عن قانون يحدّد علاقة المتكلم بالمخاطَب في هذا النوع من المخاطبات. وقد صاغ الجرجاني (ت.1078/471) هذا القانون صياغة مهمة في كتابه أسرار البلاغة مشيرا إلى هذا البيت بعينه[28] وهو ما سنشير إليه في باب الردّ.

وتبدو في هذا المثال أيضا نزعة الانتصار لأبي تمام في ما استخلصه الصولي من المقارنة بين بيت أبي تمّام السابق وقول أبي نواس: [مجزوء الرّمل]

جُدتَ بالأموَالِ حَتَّى   قِيلَ مَا هذا صَحِيح

فإنّهم لم يسقطوا أبا نواس رغم أنّ أبا تمام في "*تشبيهه الإفراط في الإعطاء والبذل بإكثار المحموم أعذر من أبي نواس إذ شبّهه بفعل المجنون*"[29].

[28] ص. 234، ط. هـ ريتر، دار المسيرة، بيروت.

[29] أخبار أبي تمام، ص. 33.

لقد كان بإمكان الصولي أن يذهب في تأويل الأمر مذهبا آخر كأن يشير إلى هذا الاتفاق بين المحدثين في طرق القول، وعدم اكتراثهم بما بين أطراف الخطاب من مواضعات ولياقة، وأن يستغلّ نسج البحتري على هذا المنوال في قوله: [طويل]

إذَا مَعْشَرٌ صَانُوا السَّمَاحَ تَعَسَّفَتْ بِهِ هِمَّةٌ مَجْنُونَةٌ فِي ابتِذَالِه

لإبراز تأثير الأستاذ في تلميذه إن ثبتَ أنّ القدماء لم يكونوا يخاطبون الممدوح هذا الجنس من المخاطبة (راجع ما قاله ابن رشيق مثلا في باب الابتداء والخروج ...)

إنّ وجوه الاحتجاج السّابقة وما لاحظنا عليها من وهن في الحجّة، ومخاتلة، بل ومغالطة، سببها التعصّب لأبي تمام والدفاع عنه بلا هوادة ستجتمع في المثال الثالث الذي أورده (ص33 وما بعدها) وهو مثال مشهور جرى ذكره في أغلب كتب النقد والبلاغة، ونسجت حوله الأخبار وهو قول أبي تمام: [الكامل]

لاَ تَسْقِنِي مَاءَ المَلاَمِ فَإنَّنِي صَبٌّ قد اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

وقد دار النقاش كله حول الإضافة الموجودة في الصدر البانية لعلاقة لم يألفها الناسُ وهي العلاقة بين الماء والملام. ومن المفيد أن نرى بالتفصيل طريقة الصولي في ردّ اعتراض المعترض على هذه الطريقة في البناء.

أولى حُجَجِه ما جرى في كلام العرب من بُنَى إضافية مثل الماء معتمدها من ذلك قوله:

- كلام كثير الماء

- ما أكثر ماء شعر الأخطل

- ماء الصبابة، ماء الهوى: يريدون الدمع وقد أورد في هذا السياق شاهدين شعريين لذي الرّمّة (ت. 117 / 735)

- ماء الوجه: وأورد على هذا القول شاهدا شعريا لعبد الصمد بن المعذّل

- ماء الشباب: وأورد في مقام الاستشهاد على هذه العبارة أربعة أبيات أولها لأبي العتاهية (ت. 211 / 826) وثانيها لابن أبي ربيعة (ت. 721/103) والبيتان الآخران لشاعرين أقلّ شهرة من السابقَيْنِ

ويأتي الاستفهام المليء بالتعجّب والاستنكار ليختم هذا التوسّع في الإتيان بما جرى عليه كلام العرب في هذا المجاز: *"فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كلّه حرفا فجاء به في صدر بيته لما قال في آخره: "فإنّي صبّ قد استعذبتُ ماء بكائي"، قال في أوّله "لا تسقني ماء الملام"؟*

واضح، من الاستعمالات المختلفة التي أوردها الصولي تبريرا لما جرى في بيت أبي تمام من مجاز، أنّها لا تنبني على

المعنى الحقيقي للفظ الماء وإنّما تتبني على ما له من معان مجازية، وقيم رمزية مشتقّة من كونه أصل الحياة وأساسها. ومن هذه المجازات والقيم الرمزية ما هو قريب من أصل المعنى كقولهم ماء الشباب وماء الصبا ثم تتسع الدائرة وتتعدد العلاقات البانية لها كقولهم ماء الصبابة وماء الهوى والعبارتان تقومان على نوعين من العلاقات على الأقلّ: علاقة مطابقة بين الدمع والماء، وعلاقة سبب تكون بموجبها الصبابة والهوى باعثين للدمع ومتسببين فيه؛ أو كقولهم كلام كثير الماء، وهي بنية مجازية أكثر تعقيدا من البنى السّوالف لأنّ فيها نقلَ المعاني التي بني عليها المجاز الذي عقدت بموجبه الصلة بين الماء وغضارة الشباب ولينه، إلى الكلام على سبيل الاستعارة، فكان وصفهم الكلام بكثرة الماء دليلا على أنّ ما يقع في نفوسهم منه شبيه بما يقع لها عند استملاء المنظر الحسن والشباب اليانع المتدفّق حيوية ولينا.

والسؤال الضمني الذي يجيب عنه الصولي بالجملة الاستفهامية التي أثبتناها هو: هل نتقيّد بهذه الاستعمالات ولا نخرج عنها ونقف حيث وقف العرب وننتهي حيث انتهوا، على حدّ عبارة الجاحظ (ت. 869/256)، أم نتّخذها حجّة للتوسّع بالقياس والجرأة على اللغة بإضافة علاقات جديدة إلى العلاقات الواقعة ؟

ولا يقف احتجاجه عند إيجاد النظائر في بنية الإضافة مقطوعة عن السياق من قبيل حمل ماء الملام على ماء الصبابة وماء الشباب وغيرهما، وإنّما يصل به الحديث إلى ما يجري في

التركيب من وجوه الخروج عن السّمت في مراعاةٍ للمناسبة بين القول والقول المتصل به وطردًا لوتيرة البناء والصياغة.

فإنّ أبا تمّام لما أخرج عجز بيته على ما جرت عليه عادة العرب في بناء المجاز في هذا الباب "*صَبٌّ قد استعذبت ماء بكائي*" فإنّه أشار إلى أنّ لوقع الملام الشديد على النفس وقعا كوقع المالح الأجاج من الماء فقال ماء الملام، فيصحّ ماء الملام المالح الأجاج الشديد الغليظ في مقابل عذوبة ماء البكاء عند الصب المتيّم. والمعنى أنّه لا مكان لطعم الملام في الحب والتعلّق.

ويجد الصولي في لغة العرب ما يمكّن لما فعله أبو تمام في الاستعمال وذلك في "*حمل اللفظ على اللفظ في ما لا يستوي معناه*" ومن الأمثلة التي ساقها:

- "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا" (الشورى، 40)، "والسّيّئة الثانية ليست بسيئة لأنها مجازاة ولكنّه لما قال: وجزاء سيّئة قال: سيّئة، فحمل اللفظ على اللفظ".

ومما يدلّ على تحمّس الصولي وانتصاره لأبي تمام بناؤه التأويل على فهم الجزاء فهما إيجابيا أي بمعنى الثواب وليس في الأمر ما يدعو إلى هذا الفهم، فالجزاء في هذه الآية موضوع للفعل الذي يقابل فعلا كقوله "*ما جزاء الإحسان إلا الإحسان*" وكقوله:

"فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ، قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ"[30] فالجزاء هنا بمعنى القضاء[31].

أمّا ثالث الموافقات بين ما قال أبو تمام وما جرى في كلام العرب ومختار نصوصها فذهاب بعض النّصوص مذهبا شبيها بما نحن بشأنه فقد جاء في القرآن:

- "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ"[32].

فالإضافة المبنية على الاستعارة: "جناح الذلّ" اعتبرت أجلّ استعارة وأحسنها وكلام العرب جار عليها" ويأتي الاستفهام المعطوف على الوصف مشبعا بالمعاني فقوله: "فما يكون أن قال أبو تمام: *لا تسقني ماء الملام؟*"[33]

---

[30] يوسف، 74 – 75.

[31] انظر تفصيل ذلك في اللسان، في قوله: جزاء سيئة بمثلها وما ذهب إليه الأخفش من تخريج يقوم على اعتبار الباء زائدة وحمله تركيب الآية السابقة على قوله "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، وما استدركه عليه ابن جنّي من ضروب التأويل.

وقد جاء في المادّة نفسها: "أبو الهيثم: الجزاء يكون ثوابا ويكون عقابا، وسئل أبو العبّاس عن جزيته وجازيتُه فقال: قال الفرّاء لا يكون جزيته إلا في الخير وجازيتُه يكون في الخير والشر، قال: وغيره يجيز جزيته في الخير والشر وجازيته في الشر".

[32] الإسراء، 24.

[33] أخبار أبي تمام، ص. 37.

يمكن أن يدلّ على ما يلي:

1ـ اقتناعه بأن لا فرق من جهة البناء والصياغة بين جناح الذلّ وماء الملام، فإذا اتّسع القرآن إلى مثل هذه الطريقة في بناء المجاز فلماذا لا يتّسع أبو تمام فيضع من العلاقات ما لم يسبق لشاعر وضعه، ولا الإتيان به ؟ وهنا أيضا يبدو انتصار الصولي واضحا في إيهامه القارئ باطّراد القياس بالسّكوت عمّا جاء في كتب اللغة من فروق في الاستعمال تجعل "*خفض جناح الذل*" مستساغا لأنّ بنية الاستعمال، واتّساع ما اشتقّت العرب من الجناح من أمثال وطرائق قول، تهيئ السامع لقبول كثير من وجوه التصريف، وإن كانت معدولة خارجة عن الموجود، لأنّ كثرة جريان الأصل في لغتهم يوطّن السّمع والعقل على قبول العلاقات الجديدة الطارئة، باعتبارها إمكانا لا تنقبض عنه النفس، ولا يمجّه الذّوق.

ففي معاجم اللغة ما يؤكّد صلة الصورة القرآنية في الآية المذكورة بطريقتهم في تصريف الأصل اللغوي (جنح)، فلهم منه أمثال واشتقاقات وطرائق قول تخفف من المحاذير، وتلهي عن مراقبة ملاءمة ما قد يَجِدُّ لِما استُجِدَّ. فالجناح عندهم للتحليق والارتفاع والعلوّ والانتقال من مكان إلى مكان، فإذا قالوا "ركب *القوم جناحي طائر*" عنوا بذلك أنهم فارقوا أوطانهم، واشتقّوا للجد في الأمر والحرص عليه والاحتفال به قولهم: "ركب *فلان جناحي نعامة*"، كما عبّروا عن القلق وعدم الاستقرار بأن قالوا "*فلان على جناحي طائر*"، وبشبيه به عبّروا عن الإرادة والرغبة فقالوا "*نحن على*

جناح *سفر*"، وكما دلّوا بالأصل على الرفعة والذّرى والكنف عندما تطلق الطير أجنحتها أو تهزّها، ذكروا أيضا كسره وضمّه ووضعه عند الوقوع إلى ملجإ أو موضع أو من شدّة الخوف دليلا على التواضع. تقول العرب: "*جنح الطائر إذا كسر من جناحيه ثم أقبل كالواقع اللاجئ إلى موضع*"، وجاء في القرآن "*وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ*"[34] وفي الحديث: "*إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم أي تضعها لتكون وطاء له إذا مشى، وقيل هو بمعنى التواضع له تعظيما لحقّه، وقيل أراد بوضع الأجنحة نزولهم عند مجالس العلم وترك الطيران وقيل أراد إظلالهم بها*".

وواضح ما بين هذا الحديث ومذاهب تأويله من صلة مباشرة بالآية المذكورة فالخفض هو معنى من معاني الوضع تعبيرا عن الاحترام والرفق والتواضع ولين الجانب. وهو حماية ورعاية وكنف متّسع فكانوا يقولون "فلان في جناح فلان أي في ذراه وكنفه" والطيور تظلّ فراخها بأجنحتها.

وإذا نظرنا في ما تقوله المعاجم في الأصل (لوم) لم نجد من الأمثال ووجوه الاستعمال ما يضاهي أو يداني ما رأيناه في الأصل السّابق، وليس فيها ما يتّصل بما أخرجه أبو تمّام إلا قولهم "*مازلتُ أتجرّع منك اللوائم*" إشارة إلى الجهد والصعوبة والمرارة. وهو

---

[34] القصص، 32.

استعمال، وإن أشار إلى مفهوم السّائل والماء، ليس كافيا لجعل بنية "*ماء الملام*"بنية أليفة واقعا أو إمكانا.

2. ويمكن أن يدلّ الاستفهام في قول الصولي المتقدّم[35] على ضيقه من المفارقة اللافتة بين الأحكام فما ورد في الآية اعتبر من أجلّ الكلام وأحسنه بحكم ما فيه من خصائص ذاتية وبحكم دخوله ضمن حكم الإعجاز.

3. ويدلّ الاستفهام أيضا على أنّ من حقّ الشاعر أن تكون له الجرأة الكافية لتوسيع دائرة الاستعمال وصياغة علاقات جديدة لم يسبق إليها.

وينتهي هذا القسم الأوّل من الدفاع عن طريقته في القول بهذه النتيجة المنتظَرة: "*فهذا أعزّك الله زائد لعذره وعنوان الاحتجاج عنه*". ولا شكّ أنّ هذه الطريقة تلفت النظر بما في جوهرها من تناقض ذلك أنّ الصولي ليدافع عمّا سمح به أبو تمّام لنفسه من ضروب العبارة وأساليب بناء المجاز، يرسّخ نهجه في ما جرت عليه العرب، أي أنّه يستمدّ حجّة الدفاع عنه من وقوعه في أساليب العرب وطرائق قولها، فهو يدافع عن اختلافه بما يؤكّد ائتلافه، وَيدافع عن المحدَث بغرسه في القديم. ولعلّه بذلك يؤكّد أنّ السبيل الوحيدة لِـ"تمرير" هذا المحدَث إقناع الناس بأنّه لا فقط مُسْتَلٌّ من

---

[35] وهو: "فما يكون أن قال أبو تمام: "لا تسقني ما الملام" ؟"

القديم مشتقّ منه وإنّما هو هو في أدقّ تفاصيله. وستكون لنا إلى المسألة عودة في القسم الثاني من هذا العمل.

فإذا كان الأمر على ما ذكرنا لم يبقَ إمكان للقياس وحمل ما جاء في بيت أبي تمّام على ما جاء في الآية، ولا مبرّر للاستفهام المليء بالاستغراب من موقف العائبين والاستخفاف بحنقهم على أبي تمام كما لو كان ارتكب كبيرة، إلا إذا ذهبنا في تأويل قوله: "*وكلام العرب جار عليها*"، وهو قول لا يسلم من اللبس، مذهبا خاصًا يبرّر الاستفهام، ويدعم دفاع الصولي عن "صاحبه". فما الذي نفهمه من قوله المذكور ؟

إذا كان يعني بجريان الكلام تواتر البناء على وجه المجاز الموجود في الآية، وتصريف مستعملي اللغة له ضروبا من التّصريف في ما يصنعون شعرا ونثرا فليس هذا بمبرٍّر للاستفهام بل إنّ فيه مغالطة في الحجة لأنّ الذي نحتاج إليه ليصحّ القياس، وتستقيم المقارنة، هو الاستدلال على أنّ كلام العرب جار على "*ماء الملام*" لا على "*جناح الذُّل*".

وإذا كان يعني بالجريان مجرّد العطف على كون القرآن "*بلسان عربي مبين*" لا بد أن يكون ما فيه من أساليب قول ووجوه مجاز جاريا في كلام العرب، مطّردا في استعمالهم، ففي هذا أيضا ما في التأويل السّابق من مغالطة وتحويل لوجهة الاحتجاج، زيادة على ما فيه من تصوّر لحياة اللغة وطرق إجرائها لا يخلو من

مثالية لا تُفرّق بين الجمل والتفاصيل، وتلغي فعل التاريخ واختلاف الأوضاع في اللغة. وتعتقد أنّ أبنية القرآن صورة للغة العرب لا يمكن الإضافة إليها.

والأغلب على الظنّ أنّ مرادَه من التقريب بين الآية، وهي من نصّ مقدّس معجز لا تمكن مجاراته، وبيت الشعر وهو من دائرة الذي يتأتّى لمن توفّرت فيه مؤهّلات القول وشروط الصّناعة، الإقناعُ بتماثل البنيتين وبأنّ الاختلاف في الحكم بينهما مردّه، بالإضافة إلى مسائل الاعتقاد إلى العامل الزمني، فقد كانت الاستعارة في الآية عند نزولها غير مألوفة لقلّة جريانها في الاستعمال ثمّ أصبحت شيئا فشيئا طرازا تولّدت من نواته وقدّت، على مثاله مذاهبُ في القول، ومناهج في التصريف، غرسته في ممكنات القارئ وآفاق احتماله.

لذلك يمكن لمجاز الشاعر، رغم افتقاده لمسهّلات الترويج كالإعجاز والتقديس، أن يتحوّل هو أيضا، بمرّ الوقت، إلى طراز نشتقّ منه ونموذج يُحتَذى ويُحاكَى. وإذا كان الأمرُ على ما ذهبنا إليه كانت هذه الطريقة في الاحتجاج من أبرز مظاهر الانتصار للشاعر والدّفاعِ عن مذهبه.

فلا عيب في ما قال إذن إلاّ الابتداء، وسنّه مذهبا في القول لم يُسبَق إليه، ومن مرجّحات ما ذهبنا إليه قول الصولي في فقرة تلي ما قاله عن الآية: "*وهو رأس في الشّعر مبتدئ لمذهب سلكه*

كل محسن بعده فلم يبلغه فيه، حتّى قيل مذهب الطائي وكلّ حاذق بعده يُنسَب إليه ويُقفّي أثَره"[36].

فالمسألة لا تتعلّق بالدفاع عن وجه من وجوه الاستعمال، وبيان تهافت ما من أجله أنكره على صاحبه المنكرون وعابه العائبون، وإنّما هي الانتصار لمذهبٍ في الشعر وطريقة في تأتّيه عمادها الجرأة على اللغة، وإقدام الشاعر على تعليق الكلم بعضه ببعض على نحو غير معهود لذلك كان لا بد من تحصين التجربة عن كلّ عيب، وعدم التقيّد في الدفاع عنها بحدّ، وتبرير كلّ طريقة قول، وردّ حجّة لكلّ عائب، وإن لم يتوخّ الردّ سبلَ الصّدق والحقّ وإلاّ فالصّولي يعرف حقّ المعرفة أنّ الشعرَ مهما كان قائلُه لا يسلم من عيب، ولا يُجمع على استحسانه العلماء بالشعر قاطبةً، وأنّ ذلك ليس بمنقص منٍ فضل صاحبه ولا حاطّا من مرتبته، ولكنّ الأمر، مع أبي تمّام، متّصل بما يُعتَبَر عنوانَ خروجه عن سبيل القدماء في القول، وأساس المذهب الذي اختطّ نهجه، ودعا الناس إليه، وساهم به في تحويل ذائقتهم وتغيير علاقتهم بما يتلقّون من أشعار من تقَبُّل كان يقوم على عفو البديهة إلى تلقٍّ يتطلّب كدّ الروية والغوص على المعنى، وهذا مظهر من مظاهر الانتقال من عقلية الشفوي إلى عقلية المكتوب، ومن الشعر يُنشَد في المحافل ويؤثّر

---

[36] أخبار أبي تمام، ص. 37.

في السّامعين تأثيرا مباشرا، إلى شعر يُقرأ في الصّحف ويحتاج معناه إلى تفسير وتدبّر وإجالة نظر.

لقد كان الصّولي مدركا كلّ ذلك وكان يعرف حقّ المعرفة أنّ المنكرين، إذا استثنينا فئة لا يُعتدّ برأيها ولم يجر في نقد الشعر ذكرها، لم يؤدّ بهم إنكارهم لبعض مذاهبه في القول إلى التقليل من شأنه بله رفع صفة الشعر عنه، ولكنّه كان يعرف أيضا أنّ نصرةَ المذهب تقتضي ألاّ يتنازل للمنكرين عن أيّ شيء، وأن يُحشَروا جميعا في فئة أعداء النهج الجديد، المتعصّبين عليه بمن فيهم أولئك الذين اعترفوا له بعلو المكانة وحملوا ما وقع فيه من خطإ على كبوة الجواد، وسقطة المبرّز. ولذلك نراه لا يميّز في الإشارة إليهم بين فئاتهم وينسبهم جميعا إلى الجهل بالشعر، وبتاريخ أعلامه ومسائله، وبالمذهب في الحكومة فيه، متّهما إيّاهم بالزيغ والميل مع ما تسوّل لهم أنفسهم من استنقاص الكامل وغمط حقّ المحسن، فمن ثم قال:

"*ولو عرف هؤلاء ما أنكره الناس على الشعراء الحذّاق من القدماء والمحدثين لكثر حتّى يقلّ عندهم ما عابوه على أبي تمّام إذا اعتقدوا الإنصاف ونظروا بعينه*"[37].

[37] أخبار أبي تمام، الصفحة السّابقة.

ويتمثّل جهلهم فـي:

-عدم معرفتهم بأصول الصناعة ومأتى القيمة ومعتمدها، ويتجلى ذلك في قوله: "*وقد كان الشعراء قبل أبي تمام يبدعون فـي البيت والبيتين من القصيدة فيُعتدُّ بذلك لهم من أجلّ الإحسان*"[38].

- عدم إدراهكم لحقيقة تجربة أبي تمّام الشعرية وفضله على غيره بأخذ النفس بالتفوّق والإحسان، قال: "*وأبو تمّام أخذ نفسه وسام طبعه أن يّبدع فـي أكثر شعره*"[39].

ولجهلهم الأمرين جميعا أو لجهلهم بالأوّل وتجاهلهم الثاني ضلّوا الحكمَ وتركوه نهبا لحقدهم وحسدهم وإرادتهم الطّعن والعيب بكلّ حال.

ويجد الصولي فـي هـذا فرصة سانحة للتشنيع عليهم، وإبراز تهافت رأيهم، وفساد طويّتهم ببناء فضاء احتجاجي رتّبه على النحو الآتي:

1 – بني القسم الأول من هـذا الفضاء على إيهامهم بإرخاء العنان لهم بالشرط الدّال على الاستحالة، والتراجع عن ذلك بالنفي،

---

[38] أخبار أبي تمام، ص. 38.

[39] نفسه، الصفحة نفسها.

بغرض إبراز الاستعارة التي تؤكّد عظيم فضله، وذلك في قولِه:"*ولو قصّر في قليل، وما قصّر، لغرق ذلك في بحور إحسانه*"[40]

بناء الجملة محكم وطريقة الصّولي في الاحتجاج تسلك أكثر من نهج، فزيادة على ما ذكرنا من الإيهام بإرخاء العنان بما في جملة الشرط "قصّر" من إشارة واضحة إلى الوقوع دون المرمى والمبتغى، والإسراع إلى نفي ذلك انسجاما مع معنى أداة الشرط التي اختارها: "لو"، وهي منطوية على معنى الاستبعاد والامتناع، وحتّى يضع المخاطَب في منطقة توتّر بين توهّم التسليم والمجاراة ونفي ذلك ودحضه، نلاحظ أنّه بناها على مقابلة تتفاوت أطرافُها لترجح الكفّة لفائدة الطّرف الثاني. فلم يكتف بالمقابلة بين "القليل" و"البحر" وهي في حدّ ذاتها دالّة عظيم الدلالة على المعنى الذي يريده وإنّما جاء بالبحر جمعا "بحور" أي بحر يسنده بحر ليكون الفعل "غرق" نتيجة طبيعية لهذه المقابلة. فالتقصير القليل، إن وُجد، وليس هو بموجود، يغرق في بحور الإحسان، فلا نراه، ومن رآه فضح ما يضمر ودلّ على تعصّبه واتّباعه في الحكم هواه، وإن كان عارفا بأصول الشعر انتبه إلى ما في الجملة من نصوص غائبة استُعمِلت فيها استعارة البحر لتحصين ذوي الفضل والمزيّة ضدّ هؤلاء الرهط من العيّابين والمدّعين. فالبحر الزّاخر لا يضرّه أن يُلقي فيه سفيهٌ بحجر. وشعر أبي تمّام بحور زاخرة قادرة على ابتلاع

---

[40] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.

كل استنقاص وحجب كلّ عيب. مع أنّ التقصير والعيب منه غير حاصل، وإنّما أراد الصولي أن يحاجّهم في تقصير مفترَض وليس بموجود، وإن وُجد كانت هذه طريقة دفعه وبيان سوء تقدير الطاعن، فما بالك وهو ليس موجودا، والشاعر منه براء، بناء على منطق، رأينا بعض مظاهره في ما سبق. أساسه الدفاعُ عن الحصن بطريقة لا تعترف بنقص ولا تترك أيّ ثلم يُمكن أن يتسلّل منه الخصم والمعاندُ.

وإلى هذا الحدّ من الدّفاع تبدو تجربة أبي تمّام الشعرية:

- أكثرَ من كلّ تجارب الشعر السابقة إبداعا أو بديعا. فمن جاء قبله يبدع في البيت والبيتين، وأبو تمّام "*يبدع في أكثر شعره*". وهنا نكتة لطيفة لا بدّ من الإشارة إليها وهو إجراء الصّولي للفعل "أبدع" إجراء فيه اشتراك معنوي مقصود. فلا مانع من أن نحمل الفَعل على معنى الإتيان بالجديد، واختراع مسالك للقول غير معروفة، فيكون البديع بمعنى الإضافة والتجويد والبروز، ولا مانع أيضا من أن نحمل البديع على معناه الاصطلاحي الذي ركّزه عبد الله بن المعتزّ (ت. 296/908) في كتابه الموسوم بـ"البديع"، والذي أشار فيه إلى طرائق في القول مثّلت قطب الصّراع بين القدماء والمحدثين على أساسها عاب أنصار القديم المحدثين بالإفراط فيها إلى حدّ إفساد الشعر، وكانوا يقولون شيئا شبيها بما يقوله الصّولي هنا إلاّ أنّهم يستنتجون منه عكس ما استنتجه تماما، فالقدماء كانوا يستعملون البديع في البيت أو البيتين، وكان ذلك منهم في غاية

الإحسان فأفرط المحدثون في ذلك حتّى أثقلوا كاهل الشعر بما أضافوا إليه من كثرة المعارض. وإذا بالصّولي بناء على هذا الاشتراك المعنوي يقلب المسألة تماما بدون أن يثيرها أصلا ويجعل التوسّع في البديع وما يترتّب عنه من جهد، وأخذ النفس بالصّعب الوعر، فضلا ومزيّة. فالإكثار من البديع/الإبداع عنده هو عنوان التفوّق وباب الإحسان. وبهذا يتأكّد انتصاره لهذه التجربة ودفاعه عن رائدها ورمزها دفاعا بلا هوادة أو تسليم، وهو دفاع أيضا عن مذهب في كتابة الشعر ووقوف في وجه طائفة من النقّاد الذين يريدون إخضاع تجارب المتأخرين لمسالك المتقدّمين، ويبدو هذا الانتصار واضحا في قوله: "وأبو تمّام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره، *فلعمري لقد فعل وأحسن*"[41].

- وتبدو تجربة أبي تمّام الشعرية أوسع من تجاربهم باعا، وأجدر منها بالاستحسان لمجرّد أنّ في شعره مما يُعتَدّ به في الاستحسان أكثر مما في شعر غيره. ولكن لا بدّ من التنبيه هنا إلى نكتة أخرى تتّصل بما كنّا ذكرنا، وبموجبها لا ينحصر الفضل في الكمّ، وإنّما في تصوّر فعل الكتابة ذاته، وهو ذهاب الصّولي في تأسيس فعل الكتابة مذهبا يختلف عمّا كان يدين به الكثير من العلماء بالشعر من أنصار القديم. فلقد كان هؤلاء يربطون الفضل بالطّبع والسّليقة، ويرون أنّ الشاعر المقتدر هو الذي

---

[41] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.

يأتيه الكلام رهوا، ويقع له الشّعر سهلا بلا مكابدة ومجاهدة، وإذا بالصّولي يعكس الاتّجاه ويعتبر التفوّق رهين الجهد والكدّ، وأخذ النفس بالصّعب، وتحميل الطّبع ما قد ينوء بحمله. وبهذا يتأكّد أنّ المناصرة منضوية ضمن تصوّر متكامل يحاول أصحابه نقل الكتابة الشعرية إلى فضاءات جديدة بمقتضيات جديدة قادرة على تحرير الفعل الشعري من سلطة ممارسات لم تعد مستجيبة للحاجات ولا مناسِبة للوقت.

- وتبدو تجربة أبي تمّام الشعرية خالصة من الشّوائب، وما عابوه عليه فيها لا يخلو أمره من أن يكون إمّا ناتج حسد، وقصد إلى الإساءة، أو ناتج جهل بتاريخ الشعر، ومعاقد القيمة، وسوء تمييز وتخليط.

2 – وقد بني القسم الثاني من الفضاء الحجاجي المذكور على الانتقال إلى سجلّ مغاير يُستدعى فيه الموروث الديني، وصورة الله في مخيال البشر، وصورتهم في صورته. وبنى ذلك على استفهام يوجّه النتيجة، ويتحكّم فيها، وينتهي إلى وضع المخاطَبين في الخانة التي اختارها لهم المتكلم، وتجلى ذلك في قوله: "*ومَن الكاملُ في شيء حتّى لا يجوز عليه خطأ فيه إلاّ ما يتوهّمه من لا عقل له؟*" (38).

فالموروث الديني لا يعترف بالكمال إلا لله ويجعل النقص ملازما لمنزلة الإنسان، لصيقا بها حتّى كأنّه منها، لأنّ الممايزة بين المخلوق والخالق تنعقد، من جملة ما تنعقد به، بهذا التفاوت.

فالكمال مرتبة لا طائل للبشر بها، ولذلك لا يمكن أن يُنزّهَ من ليس فيها أو منها عن خطإ. ومن طالب الإنسان في أفعاله بان يرقى إلى المرتبة التي تقعد به عنها منزلته البشرية، كان مجنونا لا عقل له ولا تمييز، ومن ثم لا يُعتدّ بما يقول لغلبة الوهم عنده على العقل حتّى إنّه يخلط بين المنازل ويداخل بين المقامات.

وتهيّأ، بهذا الجهل والخطإ وسوء التقدير والوهم وذهاب العقل، المجالُ أمام الصّولي العارف، العالم، لكي يلقي على المخاطَبين درسا في مراتب العلم، وشروط التّصدّر للحكم على الشعراء وتمييز ألفاظهم والحكم بالجيّد والرّديء لهم[42].

فالعلم خاصّ مصون وعام مبتذَل و"لا ينبغي لمن عرف عامّه أن يجهل خاصّه ولا لمن شرع في مبذوله أن يُنكِر مصونه"[43] وما قوله إلا مقدّمة أجراها الصّولي لضبط الشروط الواجب توفّرها في من ينتصب للحكم في الشعر والشعراء وهذه الشروط هي أن يكون:

- *"أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره"*
- *"أقدر الناس على شيء متى أراده منه"*
- *"أحفظهم لأخذ الشعراء"*
- *"أعلمهم بمغازيهم ومقصدهم"*[44].

---

[42] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.
[43] نفسه، الصفحة نفسها.
[44] نفسه، الصفحة نفسها.

ومن تصدّر لهذه الوظيفة دون أن يجتمع له العلم بأجناس القول، وما يلزم كلّ جنس منها، والمعرفة بما يُحمّل الشّعراء شعرهم من مقاصد ومعان، ولم يقع له بالحفظ ما توارد عليه الشعراء أو أخذه بعضهم عن بعض، ولم يجمع إلى العلم بالشعر القدرة على قوله، كان ذلك منه جسارة وركوبا لما لا يحسن وهو شأن عائبي أبي تمّام. وقد صوّرهم الصولي في صورة تقابل تمام التقابل صورة العالم التي رسمها فهم ممن:

- *لا يحسن أن يعمل بيتا واحدا ولا يكتب رقعة بليغة*"[45].

- *لا ينال حفظه ما قالته الشعراءُ في عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه*"[46].

إنّ أناسا هذا شأنهم لا يمكن إلاّ التعجّب ممّا أتوا واستنكار ما ادّعوه لأنفسهم ادّعاء بلا موجب: "*فكيف يجسر على ادّعاء هذا وكيف يسوّغه إياه من سمعه منه*" ؟

وإمعانا في فضح جهلهم، وخلوّ وطابهم من الشروط التي يقيمون عليها في الشعر حكما راجحا، يردف الاستفهام الإنكاري بطلب بعيد المنال بل مستحيل الوقوع لتأكيد أنّ العيب من جهة الجاهل أوقع في النفس وأشدّ إيلاما مساوقة لقول العرب: "*يأكلك*

[45] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.
[46] نفسه، الصفحة نفسها.

الأسد ولا يأكلك الذيب"، فيقول: "*وليتَ أبا تمّام مُني بعيب من يجلّ في علم الشعر قدرُه أو يحسن به علمه ولكنّه مُني بمن لا يعرف جيّدا ولا ينكر رديئا إلاّ بالادّعاء*"[47].

والحاح الصّولي في ردّه وانتصاره جهل العائبين وجسارتهم، مع ذلك، على الحكم على الشعراء بادّعائهم ما لا يحسنون، هو الذي سيهيّئ النص للانتقال إلى صورة جديدة من صور الاحتجاج، وتدعيم الموقف باستدعاء الموروث الشعري في غرض من أغراضه الكبرى وهو الهجاء، ليكون بنية ومعنى في خدمة الغرض الذي يريده الصّولي وهو التقليل من شأن هؤلاء الخصوم. والهجاء مُهيًّأ بطبيعة وظيفته، للقيام بهذا الدور، وبيان عمق الجهل الذي يسكن أذهانهم وسمك الضغائن المخشّنة لصدورهم حتّى ينبّه مصدّقيهم عن غفلتهم، ويرسم لهم حقيقة صورتهم ليثوبوا إلى رشدهم، ويُقلعوا عن الاعتقاد في مقالتهم. وهذا عند الصولي مذهب من مذاهب الاحتجاج القائمة على تقبيح صورة المتكلم لدى السّامع فيكون ذلك التقبيح أصلا في قطع الصّلة بين المخاطِب والمخاطَب أو إضعاف الثّقة التي يقبل بها المخاطَب على المتكلم، فتتعطّل وظائف الخطاب، ولا يتمّ به مراد صاحبه من إقناع الناس، وجرّهم إلى موقفه وما يؤمن به. ولقد اتّبع الصولي في ذلك سياسة قامت على مرحلتين:

---

[47] **أخبار أبي تمام**، الصفحة نفسها.

أ. مرحلة أولى أوهم فيها القارئ أنّه لا يحتاج إلى الردّ عليهم لبلوغهم في الحقارة مرتبة لا تحتاج إلى مزيد بيان، حتّى أننا نحتاج إلى أن نصون "*عن ذكرها الذمّ*". والمقابلة بين الصّيانة والذم أسلوب في رسم درجة الحقارة، فقد قال: "*ومنزلة عائب أبي تمّام (..) منزلة حقيرة يُصان عن ذكرها الذمُّ ويرتفع عنها الوهد*"[48].

والصّولي يبني هنا على المشهورات والجاري في كلام الناس وثقافتهم من أنّ الخُرق إذا بلغ الدّرك الأسفل صان المرءُ، عن الخوض فيه، لسانَه وارتفع عن ذمّه وبيان شينه. ومن ثم استشهد بقول الشاعر: [طويل]

وَمَا كُلّ كَلبٍ نَابحٍ يَستَفِزُّنِي وَلاَ كُلّمَا طَارَ الذُّبَابُ أرَاعُ[49]

ب. مرحلة ثانية: يذكر فيها حاجة الاحتجاج إلى إبرازهم على حقيقتهم بما هو مقدم عليه من اختيار في باب الأهاجي لا بدّ أن يوفي بالغرض، ولا بدّ أن يكون موجعا بالغا في الاحتقار والحطّ من الشّأن مبلغا ليس دونه مبلغٌ. ويرى أنّ ما سيقدم عليه مضطرّا جزء من العقد الذي أخذه على نفسه تجاه من ندبه للقيام بهذه الوظيفة وهو مزاحم بن فاتك، فمن ثم قال: "*ولولا ما اضطررتُ إليه*

---

[48] أخبار أبي تمام، ص. 37.
[49] نفسه، ص. 49.

من الاحتجاج لما ندبني له لما كان لمثل هذا خاطر في فكري ولا طريق على لساني ولا أهّلتُ منهم أحدا لذمّتي"[50].

وقد افتتح هذا الجانب بأبيات لمسلم بن الوليد (ت. 823/208) ترسم لنا قراءتُها صورة هذا المختار والدّائرة التي سيتحرّك ضمنها هذا الغرض: [كامل]

أمُوَيْسُ قل لي: أينَ أنتَ مِن الوَرَى لا أنـتَ معلـوم ولا مجهــولُ؟

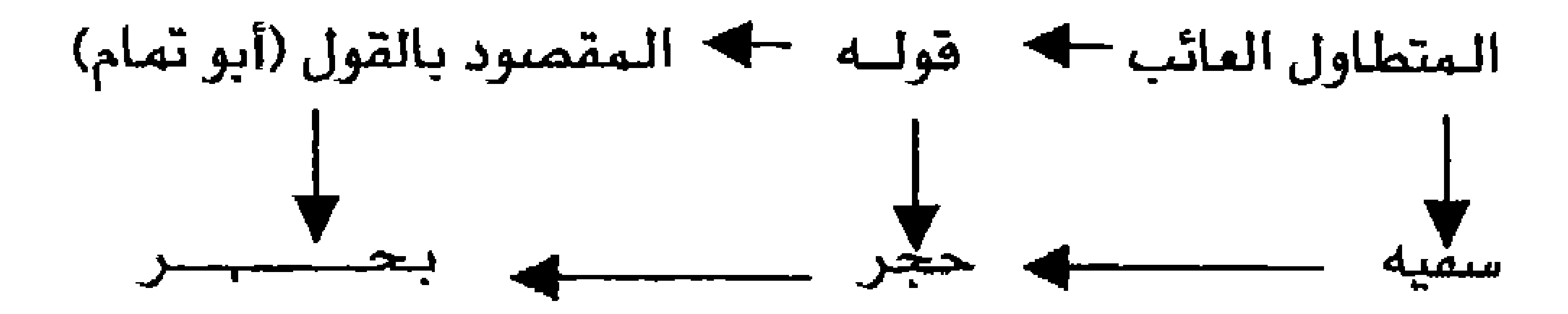
أمَّا الهجَاءُ فدَقَّ عِرضُكَ دُونــه والمدحُ عنكَ كمَا عَلِمتَ جَليلُ

فَاذْهَبْ فَأنْتَ طَلِيقُ عِرضِكَ إنّه عِرضٌ عَـززْتَ بَـه وَأنْـتَ ذَلِيـلُ

ولتوسيع دائرة هذه الحجّة المبنيّة بشعر الهجاء على أشدّ ما يكون الهجاء، والانتقال بها من تحقير صورة المخاطَب ببيان وضاعة أصله وتدنّي منزلته وتفاهة عقله إلى الدرجة التي يُعدّ معها ذكرُه بالهجاء فضلا ومدحا، إلى تعطيل أثر ما يقول في المقول فيه للبوْن الشّاسع بين المنازل والاختلاف الصارخ بين المقامات، استدعى الصّولي صورة جاهزة في التّراث لردع المتطاولين، وتأديب من تحدّثهم أنفسهم بالنيل من المقامات الرّفيعة ليجري مع الخمول ذكرهم ويُعرف اسمهم. وهي صورة سبق أن رأينا ما يشير إليها في الرسالة وقوامها تشبيه تمثيل أطرافه هي:

---

[50] أخبار أبي تمام، ص. 41.



فجاءت مجموعة من الأشعار تقلّب هـذا المعنى على وجوهه، وترفع من شأن أبي تمام بهذه الاستعارة الأم، وباستعارات مشتقّة من هـذا الأصل، وتحطّ في المقابل من عائبيه وتؤكّد دناءة ما أقدموا عليه وخساسته.

ولا شكّ في أنّ الصولي باتّكائه على الموروث الشعري الباني لهذا البون العميق بين طرفيْ "النّزاع" يسعى كما قلنا إلى تثبيت المناوئين لأبي تمّام في الصورة التي حاول طيلة الرّسالة رسمها لهم، حتى يبدو ما قالوه انعكاسا لها ورشحا عنها، حتّى إذا حملها القارئ على أنّها مقالة نفوس مريضة انتفى فعلها بل أصبحت، على ما فيها من غليظ الكلام، لأبي تمام على قائليها ومعرضا بما هم عليه من جهل بأصول الصناعة وفروعها وادّعاء فاضح لما لا يحسنون وبحث عن الذكر وجريان الاسم بالإساءة والتشنيع والإيغال في العيب. فيصبح الكلام من معدن الحقد لا النقد، ومن دائرة الجهل والظلم لا العلم والعدل.

على هذا النحو يصبح الدفاع عن الرجل كشفا عن فساد الطّوايا الدافعة على القول، وفضحا لما يملؤه من جهالات، لا انتصارا وميلا فتنحلّ العرى بين القول وموضوعه لأنّ الكلام في الشعر يتطلّب العلم به وبأسرار صناعته وتقوم الحكومة فيه على العدل وحسن التّمييز لا على الزّيغ والادّعاء والتعرّض للمقامات.

الردّ وبلاغة الانتصار

تنتمي هذه "الرّسالة" إلى أدب "الرّدود" وهو أدب تعود نشأته إلى فترة مبكّرة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ارتبط ظهوره بمسائل الدين وأصول الاعتقاد[51]، ثم اتّسع ليشمل كل كتابة يكون القصد منها التعبير عن عدم القبول وعن التخطئة وبيان الزيف في كل ما تختلف بشأنه الآراء، وتفترق جهات النظر[52]. وقد ورد هذا

---

[51] انظر في ذلك: فؤاد سزكين، تاريخ التّراث العربي، 1/ 4، العقائد والتصوّف، نقل محمود فهمي حجازي، مطبوعات جامعة الإمام، الرّياض، 1991. ذكر ذلك المؤلّف في المقدمة (ص ص. 3 – 6) وأكّدته الإشارات الواردة في المتن في مواضع كثيرة. ويبدو أنّ الردود على القدرية كانت من أقدم ما ألّف في الموضوع (انظر على سبيل المثال ترجمة عمر بن عبد العزيز، ص. 15، والحسن بن محمد، ص. 16). ومن الردود البارزة لتثبيت العقيدة لا سيما عقيدة التوحيد الردود الموجّهة إلى أهل الديانات المغايرة (انظر على سبيل المثال الدّراسة الوافية التي وضعها عبد المجيد الشّرفي في "الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرّابع / العاشر" الدار التونسية للنشر / المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986، ومنها خاصّة الباب الثّاني: الردود وظروفها، ص ص. 113 – 170).

[52] لئن استأثر الاختلاف في أصول الاعتقاد بحسب النحلة والمذهب بأكبر نصيب من الردود التي احتفظت بأسمائها المصادر القديمة، فإنّ العلماء بأفانين العلوم الأخرى مضوا على الطريق نفسها متى رأوا في المسألة رأيا مخالفا وأوقفهم النظر على غير ما وقف عليه غيرهم. تلك كانت سبيلهم في التّعامل مع علومهم الأصيلة والعلوم الدّخيلة المنقولة عن لغات أخرى. ولم يمنعهم إجلالهم للحكماء والفلاسفة من الرد عليهم، وإبطال بعض مقالاتهم بعد أن فهموها،

النّوع من الكتابة تحت مسمّيات مختلفة يربط بينها انتماؤها إلى حقل مصطلحي بين وحداته من الاتّفاق أكثر مما بينها من الاختلاف؛ فإلى جانب "الردّ" نصادف "*النّقض*"[53] و"*الإبطال*"[54] و"*الاحتجاج*"[55]. وقد تجمع المؤلّفات المنسوبة إلى المؤلّف الواحد هذه المصطلحات كلّها أو جلّها[56]. وقد يضيف بعضهم إلى هذه القائمة مصطلحا آخر يأتي في العنوان بمفرده أو يقرن بأحد

وأدركوا ما عليه تبني، وما قد يترتّب عن الأخذ بها برمّتها من تصدّع في منظومة معارفهم. انظر في ذلك: الفهرست، ط. فلوجل، مكتبة خيّاط، بيروت، د.ت وانظر خاصّة المقالة الخامسة (ص ص. 172 – 198) حيث نقف على ردود من هذا القبيل كـ "كتاب النّقض على أرسطاطاليس في الكون والفساد"لأبي هاشم عبد السّلام بن محمد الجبّائي (ص. 174).

[53] في المقالة المذكورة من كتاب الفهرست كتب عديدة تحمل في عنوانها مصطلح النقض" ككتاب ابن الإخشيد في "النقض على الخالدي في الإرجاء" (ص ص. 72 – 73) وكتاب الجُعَل في نقض كلام الراوندي في أنّ الجسم (..) (ص. 174)، وكتاب الجبّائي عن الطبائع والنقض على القائلين بها (ص. 174).

[54] هذا المضطلح أقلّ جريانا من مصطلحي الردّ والنّقض ولكنّه أوضح منهما معنى ومقصدا فقد ذكر ابن النديم لأبي سهل النويختي (ص ص. 176 – 177) مؤلّفات من بينا "كتاب إبطال القياس".

[55] ذكر ابن النديم لأبي بكر البردعي "كتاب الاحتجاج على المخالفين"، انظر الفن الثّامن من المقالة السّادسة (ص. 236 وما بعدها).

[56] تجمع مؤلّفات أبي سهل النويختي الذي سبق أن ذكرناه بين الردّ (5) والنقض (4) والإبطال (1) كما يجمع أبو بكر البردعي بين الاحتجاج والنّقض والردّ.

المصطلحات التي ذكرناها وهو مصطلح "الانتصار"[57]. ويبدو أنّ معنى هذا اللفظ في الاستعمال القديم يختلف عن معناه اليوم وهو الفوز والظهور والغلبة، وهو المعنى الذي ذهب إليه المستشرق نيبرج في ترجمته لعنوان ابن الخيّاط[58]. وهذا الاختلاف في المعنى متولّد عن الاختلاف في البنية ذلك أنّنا نجري اليوم هذا الفعل على هذه الصيغة مع حرفي الجر "على" و"لـ" بينما الغالب على الاستعمال القديم كما جاء في المعاجم، وفي عناوين بعض الرّسائل والكتب، إجراء الفعل عاريا عن حرف الجرّ أو إجراؤه مع حرف الجر "من" فقد كانت العرب تقول: *"انتصر الرجل إذا امتنع من ظالمه. قال الأزهري يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام (..) وانتصر منه انتقم والانتصار الانتقام"*[59]. وسمّى البطليوسي كتابه *"الانتصار ممن عدل*

---

[57] من أشهر المؤلّفات في هذا المضمار كتاب أبي الحسين عبد الرّحيم بن الخيّاط الموسوم بـ"الانتصار والردّ على ابن الرّاوندي الملحد، ما قصد به من الكذب على المسلمين والطّعن عليهم وقد نشره نيبرج بالقاهرة، 1925.
H.S Nyberg , Le livre du triomphe et de la réfutation d'I. Ar R. l'hérétique. Kairo, 1925.
ونشر كذلك ببيروت، 1957.
كما نذكر من الصّنف الأول كتابا من كتب الأدب عنوانه "الانتصار ممن عدل عن الاستبصار" لابن السّيد البطليوسي وهو في الردّ على ابن عربي النحوي في تخطئته في أمور تتعلّق بشرحه ديوان سقط الزّند للمعري. حقّقه حامد عبد المجيد ونشرته المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1955.

[58] راجع الهامش عدد 9.

[59] اللسان، المدخل "ن.ص.ر".

عن *الاستبصار*"[60]. فيكون المعنى الذي يدلّ عليه الفعل إمّا الاحتراز من السّقط وصياغة الموقف والرّأي بحيث لا يوصل إليهما، ولا ينفتح لأحد فيهما باب من أبواب القول؛ وإمّا الانتصاف ممن جار في الحكم، وتعسّف بالرد عليه وتسفيه مقالته بالدّليل السّاطع وبالحجة القاطعة.

إلا إنّ كثرة جريان هذه المادّة اللغوية في العصور الحديثة في مجالات عديدة لها صلة بحياة النّاس ومصيرهم من الاستقلال السياسي، والانتصار على الاستعمار، إلى ضروب المعارك الأخرى لبناء الدّولة والخروج من التخلّف بالانتصار على الفقر والجهل والبطالة وما إليها. طوّر من بنيتها ووسّع من معناها. ومن أبرز ما غلب على مادّة "ن.ص.ر" متى أخرجت على صيغة افتعَل وبنيت على الجارّ "لـ" (انتصر لـ) معنى الوقوف إلى الجانب، وتدعيم الموقف، والذبّ عنه بكل وجه، بقطع النظر عن مسألة الحق والعدل في الحكومة. فيكون النصير المدافع بوجه الالتزام والانتماء والعقيدة قبل أن يكون من يعين المظلوم وينتصف ممن ظلمه؛ ويكون الأنصار بمعنى الموالين والمنضوين تحت اللواء المدافعين عن العقيدة والمذهب بحكمة الانضباط المترتّب عن الانتماء، وهو المعنى الذي إليه قصدنا عند إجرائنا هذا المصطلح في التّحليل، وعلى كلّ فمعاني هذه المصطلحات ليست مستقلّة عن الموضوع الذي تُجرى فيه، فقد يقوى ذلك المعنى ويضعف بحسب ما للموضوع من

---

[60] راجع الهامش عدد 9.

أهميّة وإثارة. فإن تعلّق بأمور العقائد والخلاف في المذهب اكتسبت هذه الشّبكة معنى الرّفض القاطع، واتّسمت اللهجة بالعنف، وتحوّل السجال اتّهاما قد يتحوّل تكفيرا، وإن هي تعلّقت بقضايا ليس لها وزن القضايا الإيمانية، اختلفت لهجة تلك الرّدود، واختلفت معاني أسمائها بقدرما لتلك القضايا من قرب من دائرة العقائد أو بعد عنها. فقد تكون المعارضة والخلاف في أبيات "*أفسدها ناسخ الديوان بالزيادة والنّقصان فعادت مكسورة الأوزان ونَبَتْ العين عمّا فيها من الشّين (..) وكذلك وجد لحنا من النّاسخ في بعض الأحرف فظنّه من قبل المؤلّف المصنّف*"[61] وفي هذه الحالة يكون الردّ دفعا لما توهّمه المتحدّث في صاحب الردّ من عجز، وتبرئة للذمّة أمام جمهور المتعلمين. وليست هذه الردود بالمتأكّدة فقد يكون بالإمكان السّكوت عنها:

"*ولولا أن يظنّ بنا هذا الرّجل، وفّقه الله، عجزا عن الانتصاف والانتصار، كما توهّم علينا الجهل بالإعراب وكسر الأشعار، لصمتنا عن مراجعته صمت الرّجم ولم نتشاغل بتصريف لسان في مجاوبته ولا قلم*"[62]. كما قد يكون الخلاف في قضايا كبرى تعلن عن تحوّل عميق في مظهر من مظاهر حياة النّاس ونشاطهم فينعكس ذلك على الردّ في لهجته وفي مناهج الأدلّة فيه، حتّى يكاد أن يكون مطابقا لما رأيناه في باب العقيدة لأنّه في

---

[61] البطليوسي، الكتاب المذكور، ص. 2.

[62] نفسه، الصفحة نفسها.

جوهره من أمور العقائد وإن كانت غير عقائد الدين. ورسالة الصّولي التي حاولنا تحليلها نموذج في هذا المضمار فهي وإن كانت في الظاهر جوابا "*عن خلاف بعض النّاس في أبي تمّام والأسباب التي وقع لها ذلك*" بكلّ ما توحي به هذه العبارة من حياد، وحرص على الفهم والتفسير والتعليل، وإن كان قصد صاحبها منها "*تبيين فضله والردّ على من جهل الحقّ فيه*" بما لكاتبها من قدرة على تبيّن ما يحتجب على غيره من أمور الشعر ودقائق صناعته، وما به يُعرَف اقتدارُ الشاعر على الجيّد منه وفضله فيه على غيره، ومأتى ذلك الفضل، وبما له من علم بأصول الصناعة يفتح أمامه سبل الحق. وينطق لسانه بالصّدق، ويجعله عادلا في الحكم، وهي أمور لا تتيسّرُ إن خيّم الجهل واحتجبت على السّالك السّبل، فيكون بيان الفضل والردّ على من ضلّ سبيل الحقّ تنويرا وهديا وحكما عدلا من لدن عالم مميّز منصف؛ لئن كان ما ذكرنا من مرامي الرسالة المعلَنة التي ذكّر بها صاحبُها في أكثر من موضع فإنّنا بيّنا أنّ صاحبها لم تكن تحرّكه دواعي إنصاف أبي تمّام ممن هاجموه بغير حقّ، وغالوا في تعقّب شعره بحثا عمّا فيه من وجوه السّقط والزّلل، فيكون ذلك مبرّرا للتشنيع عليه والتقليل من شأنه؛ ولا دواعي العدل في الحكم ببيان الخطإ والصواب بحسب ما تقتضيه قواعد الشعر ومعايير النّقد وإنّما كانت تحرّكه دواعي الانتصار له. والذبّ عن تجربته، والدّفاع عن مذهبه ومذهب من والاه من المجدّدين الذين جاؤوا يبشّرون بطريقة مختلفة في تعاطي الشّعر وتجديد نواميسه، وكان لا بدّ لتمرير هذه الدّواعي من سياسة في بناء الخطاب،

وبلاغة تصل به إلى الهدف المقصود، وتحقق الغاية المرتجاة منه، وهو إقناع الجمهور الأعظم من القرّاء بتهافت حجج المناوئين وانبنائها على أسباب لا علاقة لها بالشّعر وعلمه، وردّ الضجّة التي أثاروها حوله وحول تجربته إلى أعراض ملابسة لتلك المواقف كالجهل والحسد والادّعاء.

ويمكن أن نجمل ملامح تلك السّياسة ومظاهر تلك البلاغة في النقاط الآتية:

الإيهام بأنّ ما دعاه إلى الاهتمام بأمر أبي تمّام هو طلب عبّر عنه وليّ نعمة مغرم بالأدب، وأنّه اختاره دون غيره من النّاس لما له من معرفة بالشّعر، ولما سبق أن أنجز في أخبار الشّعراء وجمع أشعارهم وإيراد ما يعين على فهمها وتسهيل مُعْتَاصِها. وتجلّى كلّ ذلك في قوله: "*فإنّك جاريتني آخر عهد التقائنا فيما أفضنا فيه من العلوم أمرَ أبي تمّام حبيب بن أوس الطّائي وعجبتَ من افتراق الناس فيه (..) وأنا مبتدئ بالجواب عن خلاف بعض النّاس في أبي تمّام والأسباب التي لها وقع ذلك*"[63].

وإذ كان الدّاعي إلى الكتابة عاملا خارجيا خفيت النوازع الدّاخلية واحتجبت الدوافع الحقيقية التي حملت الصّولي على التأليف والدّفاع عن أبي تمّام ومذهبه في الشّعر. وإمعانا في المراوغة

[63] أخبار أبي تمام، ص ص. 3 – 4.

والتخفّي أرخى العنان للقارئ حتّى يصرفَه عن المسالك المؤدّية إلى حقيقة مقصده بذكر ما اعتبره مقصده الأسنى ومنتهى ما يريد تحقيقه، فقال: "*وإن كان قصدي تبيين فضله والردّ على من جهل الحق فيه*"[64].

فكشفُ ما احتجب وتوضيح ما غمض وإرجاع الضّالين، من جهل، إلى الجادّة لمن أخصّ ما يُطلبُ إلى العلماء، فالخبرة الحاصلة لهم، والمعارف المحصّنة لأخلاقهم، تحملهم على العدل في الحُكم، والإنصاف بين المتخاصمين.

وقد بذل الصّولي في بناء رسالته جهدا واضحا لإقناع قارئه بأنّه يصدر فيها عمّا يقتضيه العلم من اتّزان عند التقدير، وميل عن الهوى أمام تكافؤ الأدلّة، وترجيح ما يجب أن يُرجَّح بسبب غالب.

وأمارات ذلك الجهد كثيرة نذكر منها على سبيل المثال حكمه المتشدد على المتعصّبين لأبي تمام تعصّبوا أو عليه. وقد أطنب في ذكر ما هم عليه من جهل بما يخوضون فيه وعجز عن توفير أدنى متطلّباته وهو بذلك يعوّل على ما سيحصل في ذهن القارئ من مقتضى حكمه ومتضمّن قوله، كرسوخ قدم صاحب الرّسالة في العلم، وأهليّته للحكم، ووقوعه بمنجاة عن التّعصّب الذي ارتبط عنده في الحالتين بقلّة المعرفة المؤدّية إلى تهافت الرأي، وقد تبيّن

---

[64] أخبار أبي تمام، ص. 4.

ذلك في قوله: "*ورأيت مع ذلك الصنفين جميعا وما يتضمّن أحد منهم القيام بشعره والتبيين لمراده بل لا يجسر على إنشاد قصيدة واحدة له، إذ كانت تهجم، لا بدّ، به على خبر لم يروه ومثّل لم يسمعه، ومعنى لم يعرفْ مثله*"[65].

وهي كلّها أسباب داعية إلى الاطمئنان، مروّجة للحياد والعدل، مؤذنة بأنّ صاحب الرّسالة سيحتكم لأصول الصّناعة وقواعد العلم في إبداء الرأي، وأنّ ما قد يُلاحظ على لهجته من عنف وتقريع ليس إلاّ من باب الانتصاف، وردّ الأمور إلى نصابها وحقيق وزنها، ومداواة الشّطط بالشّطط. وفعلا صرّح الصّولي منذ البداية أنّ غرَضه وصف ما وقع من الخلاف، والوصول إلى الأسباب التي من أجلها وقع. وهو توجّه منسجم تمام الانسجام والصّورة التي يريد أن يبنيها لنفسه، والانطباع الذي يرغب في أن يحصل للقارئ من قراءة جوابه: "*وأنا مبتدئ بالجواب عن خلاف بعض النّاس في أبي تمّام والأسباب التي لها وقع ذلك*" صورة العالم الذي لا تخفى عنه كلّيات المسألة وجزئياتها، القادر على إدراك الاختلاف في الاتّفاق، اختلاف الدوافع والأسباب، مثلا، والموقف واحد، وعلى بناء احتجاجه بناء محكما يتضافر فيه صحيح الأخبار وشواهد الأشعار حتى لا يأتي رأي غير مدعوم ولا تساق حجّة غير مقنعة. فلقد سبق لنا في التّحليل الإشارة إلى تصنيفه عائبي شعر أبي تمّام صنفين

---

[65] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.

اختلفت لهجة الردّ عليهما، واختلفت الأسباب المفسّرة لاتّفاقهما على عيب شعره.

في الصّنف الأوّل أدرج "*بعض العلماء*" وعلّل سكوته عن أسمائهم قائلا: "*لصيانتي لأهل العلم جميعا وإبقائي عليهم وحياطتي لهم*"[66]. وهو بهذا التّعليل يدرك غايتين: تزيين صورته لدى قارئه بهذه الأخلاق السّامية، وهذا الإجلال للعلماء حتّى في حالة الاختلاف معهم والنّزوع عن بذل أعراضهم، وبسط ألقابهم، حتّى لا يكونوا نهبا لمن لا تصونه روادعه عن النّيل منهم، والإيحاء، في الوقت نفسه، بأنّهم أتوا أمرا جللا يحسن التستّر عنه، وعدم إشاعة ذكره بين النّاس، لأنّه لا يليق بما لهم من مكانة، ولا يشرّف المنازل التي وضعتهم فيها صفاتهم.

ورأيناه يفسّر اجتنابهم شعره وعيبه بما درجوا عليه من اتّباع وتقليد ومحاكاة، فعلمهم لا يزيد على إعادة ما قاله الآخرون قبلهم والبقاء في نطاق ما حددّوا من مقاييس وما ضبطوا من معايير؛ فهم أصداء أصوات وعلماء على المجاز لأنّ الأولى أن يُقال فيهم إنّهم في الحقيقة حفظة ونقلة لا يغيّرون من شيء ولا يبادرون إلى شيء.

وحتّى تتأكّد صورة العالم العارف رأيناه يستطرد إلى ذكر خصائص الشعر القديم ويبيّن الفرق بينه وبين الشعر المحدث الجديد

---

[66] أخبار أبي تمام، ص. 14.

الذي ظهر على النّاس ولم يتهيّؤوا لإدراك خصائص معانيه وطريقة أصحابه البديعة في صوغ تلك المعاني وتصويرها وكانت هذه، كما بيّنا، طريقة في الإقناع بأنّ الإعراض عنه ليس متأتّيا من الشّعر ذاته، وإنّما من الوحشة المتولّدة عن المفارقة بين شعر يدعو أصحابه وقرّاءه إلى نمط جديد في التّقبّل، وقرّاء ألِفوا نهجا واحدا وربّوا على معايير في الاستحسان يصعب عليهم مغادرتها إلى غيرها، فإذا ارتفعت الجفوة، بالعلم بعد الجهل، وقرّب المعنى البعيد، وذلّلت وجوه البديع وصنوف الأساليب، استأنست النفوس، وأقبلت بعد إدبار، وألفت بعد وحشة.

ولَمِن أكبر الحجج التي أوردها الصّولي، كما حلّلنا ذلك في موضعه، الأخبار المتعلّقة بعالمين ذكر اسميهما وأغرق في الإشادة بفضلهما وعلمهما ورفَعَهما إلى مقام النموذج الذي يُحتذى، وهما المبرّد وثعلب.

فلقد كانت أخلاقهما العلمية تصونهما عن إتيان ما لا يحسنان، وتدفعهما إلى الاعتراف بجهلهما، والاستعداد لمعرفة ما لم يسبق لهما معرفته. وفي خبر ثعلب وتحوّله من تجنّب شعر أبي تمّام والنفور منه إلى الإقبال عليه والاعتراف بقيمته وفضل صاحبه، عندما وضحت له مسالكه، ووقف على الخبيّ من معانيه، حُجَّةٌ للصولي على خصوم أبي تمام الذين يرفضون الإقرار بأنّ تشنيعهم عليه متأتّ من الجهل بمذهبه في قول الشعر وطريقته في بناء المعاني. ولقد حرص الصّولي، رفعا من طاقة الحجّة، على الإقناع على أن يُخرجها

مخرج الحادثة التاريخية ليُسلّم القارئ بمطابقة الخبر للواقع، وليعتقد بأنّ ما يقوله النصّ هو الحقّ بلا زيادة أو نقصان فتنقاد نفسه وتذعن.

وقد استدعى الحديث عن التحوّل الحاصل في الموقف من شعر أبي تمّام بالعلم بعد الجهل، في سياسة النصّ، استطرادا فصل به بين الردّ على الفريق الأوّل من العائبين والفريق الثّاني، وفيه عرّف بالشعر الجديد، وبخصائص بنائه، وصورة المعنى فيه، والمسالك المؤدّية إليه، بناءً على نماذج اختارها حتّى يقرّب القارئ من هذه التجربة ويقوم بدور العالم الذي في قدرته أن يُدرّب النّاس على ما لم يألفوا، وأن يقوم، من الأجيال الجديدة حيال هذا الشعر الجديد، بما قام به العلماء قبله عندما ذلّلوا للنّاس أشعار الأوائل "*وماشوها لهم وراضوا معانيها*"[67].

ولا شكّ في أنّ في فتح فضاء الرّسالة على هذا الشّعر، بهذا التوّسع، مذهبا في الاحتجاج، وبلاغة يحقق بها الصّولي غايات عدّة: منها تثبيت صورة العالم الذي اختير لمهمّة الإنصاف في الخلاف، وهو عالم تحيط معارفه بتجارب الشعر قديمها وحديثها. فقدرته على الحكم في خصائص الشّعر القديم كقدرته على التبسّط في الشّعر المحدث، والاهتداء إلى أبرز ما يجعله مختلفا عن شعر الأوائل، ومنها الترويج لهذه التجربة، والتعريف بها، وإقناع الجمهور بأهمّية ما أقدم عليه أعلامها من تبديل في سنن الكتابة، باختيار نماذج منها

---

[67] أخبار أبي تمام، الصفحة نفسها.

تحمل أبرز خصائصها؛ ومنها تأكيد العلاقة بين العداوة والجهل تلك الحجّة الكبرى التي يدور عليها تفسير جلّ المواقف، ومنها أخيرا التهيّؤ لرفع اللهجة في وجه الفريق الثّاني من المتعصّبين على أبي تمّام، وهم المعنيّون بالردّ كما سنبيّن ذلك لأنّهم يمثّلون الصّورة المناقضة لصورة العالمين المذكورَيْن لأنّها مبنية على الجهل والادّعاء.

إلا أنّ جميع ما ذكرنا لا يصرفنا عن النّوازع الحقيقية التي كانت تحرّك الصولي في تلك الرسالة، وهي نوازع لم تخف على الباحثين قدماء ومحدثين[68] ولكن دون أن يدرسوا تأثيرها في بلاغة النصّ ومذهب بناء الحجّة فيه حتّى لا يبقى الانتصار انطباعا حاصلا من القراءة وإنّما هو سياسة في بناء الحجّة، وترتيب أقسامها، وصوغ العبارة في النصّ بحيث يحصل التّرابط بين البنية المنطقية واللغوية والقصد ترابطا يمكن الاستدلال عليه وتحليل مكوّناته.

ومن أبرز الأدلّة على الانتصار لأبي تمّام والدّفاع عن شعره الافتعال الظاهر في تقديم الأسباب التي من أجلها وضع الرّسالة. ولا نعني بذلك تكذيب الوقائع التّاريخية والشكّ في صدق الطّلب الذي قد يكون مزاحم بن فاتك تقدّم به فعلا للصّولي وإن كنّا نعرف من

---

[68] انظر في ذلك البحث الجامع الذي ألّفه محمود الرّبداوي عن "الحركة النقدية حول مذهب أبي تمّام: تاريخها وتطوّرها وأثرها في النّقد العربي"، I/ في القديم، II/ في الحديث دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ص ص. 149 – 166 . وهي صفحات مخصصة للصولي نقتطف منها قوله: "(..) لهذا سخّر الصّولي كلّ جهد للدّفاع عن مذهب أبي تمّام، وانصبّ على خصومه وقرّع عائبيه" (ص. 154).

جهة أخرى أنّ الأمر لا يعدو أن يكون أحيانا تقليدا من تقاليد التأليف، وإنّما نشير إلى أنّ الرسالة جزء من مشروع كبير لا يمكن أن يرتجل الصّولي مراحله. ويستجيب لمقتضياته، بمجرّد طلب صادر عن وليّ نعمة يريد أن يعرف جليّة الأمر في خلاف حول شاعر. وطريقة الصّولي في تفسير منطق تعاقب المراحل والأسباب التي دعته إلى الإيفاء بها كلّها[69] قد يزيد من حظوته لدى وليّ النعمة فيتّسع في التفضّل عليه ولكنّها لا تقنعُ مؤرّخ الأدب، والعارف بما كان يتطلّبه جمع أخبار الشّعراء وعمل أشعارهم من بحث مضن وجهود لا تؤتي أكلها إلاّ بعد قضاء السّنوات والسّنوات في الجمع والحفظ، والصّولي اتّسعت رواياته، وأحاطت بأفانين الشّعر محفوظاته، واشتهرت خزانة مصنّفاته[70]. والغالب على الظنّ أنّه ألّف هذا الكتاب في أواخر أيّامه مما يؤكّد أنّ مادّته جاهزة عنده، وأنّه

---

[69] يقول الصّولي متحدّثا عن مكوّنات مشروعه: "(..) وإهدائه في رسالة إليك تتبعها أخباره كاملة في جميع فنونه (..) وأذكر جميع ما قيل فيه(..) ثم أرتني عين الرّائي بقية في نفسك منه لم يطلعها لي لسانُك (..) فسألتك إبانته وتكليفي جميع ما تريد منه، فعرّفتني أنّ تكميل ذلك لك وبلوغي فيه أقصى إرادتك إتباعي أخباره بعمل شعره كلّه معربا مفسّرا حتّى لا يشذّ منه حرف ولا يغمض منه معنى ولا ينبو عنه فهم ولا يمجّه سمع (..)" أخبار أبي تمام، ص ص. 5 – 6.

[70] جاء في مقدّمة الناشرين لأخبار أبي تمام (ص. هـ ى) قولهم: "(..) كان له فيما يقولون خزانة كتب كبيرة من تصنيفه (..) وإذا ما احتاج إلى معاودة شيء منها قال: يا غلام، هات الكتاب الفلاني. قال فيه أبو سعيد العقيلي: [مجزوء الرمل]

إنّما الصولي شيخ   أعلم الناس خزانة
إن سألناه بعلم   نبتغي عنه الإبانة
قال يا غلمانُ هاتوا   رزمة العلم فلانه"

يعرف تفاصيلها كما دلّت على ذلك بعض الأمارات التي تضمّنها نصّه الواصف لمشروعه[71] ومن أبرزها معنى الاستغراق الذي دلّت عليه النّعوت من قبيل "كاملة"وأسماء التّسوير من قبيل "جميع" (ثلاث مرات) و"كل" (مرة) والبنية الدالّة على النّهاية في الغاية بـ"حتّى" مع النّفي والمفرد النّكرة (حتّى + نفي (أربع مرات) + فعل مضارع (أربع مرات) + مفرد نكرة (أربع مرات)).

فالغالب على الظنّ أنّ نيّة هذا المشروع بأجزائه معقودة ومادّته جاهزة بكلّ تفاصيلها، بل لعلّ صاحبنا يتحدّث إلى مخاطبه بلغة الاستقبال والمشروع تامّ جاهز على وشك إخراجه للنّاس[72]، يدلّ على ذلك ما جاء في الفقرة الأخيرة من الرّسالة في قوله: "وقد رأيت أعزّك اللّه بعض هؤلاء الجهلة يصحّف أيضا على أبي تمّام ثم يعيب ما لم يقله أبو تمّام قطّ، وأنا ذاكر ذلك في موضعه من الشّعر إذ كنتُ قد خفتُ إعراضك وكرهتُ إملالك. على أنّي قد أطلتُ هذه الرّسالة – أعزّك اللّه – استلذاذا لخطابك، وشغفا بمرادك ولتعلم أنّي بلغتُ ما في نفسك، وقضيتُ بعضَ حقّك. وأنا أتبعُ هذه الرّسالة بأخباره،

---

[71] والذي اقتطفنا منه بعض الفقرات في الهامش عدد 17

[72] يبدو أنّه لم يكن من مشاهير القرن الرابع هجريا وأعلامه فكتب التّراجم تسكت عن ذكره ولم نقف عند ما نعرف من المصادر القديمة على معلومات تتعلّق به. كلّ ما لدينا حديث الصّولي عنه وعن أخويه في الرّسالة ولهجه بتقدّمهم "في العلم والفهم والدّين والصّدق" وقد أثبت في هذا الموطن مقطعا من قصيدة كان صنعها في مدحهم، أخبار أبي تمّام، ص. 13.

إذ كانت عزيزة لا تكاد تجتمع لأحد، وهي تنقضي سريعا ثم أتبعها بعمل شعره إن شاء الله"[73]. في حوزة الصّولي كلّ الأدوات التي يحتاجها صنع المشروع. فهو يعرف شعر أبي تمّام على الصّواب، كما كان يعرف كلّ المداخل المريبة التي تسلّل منها الحاقدون للتشنيع عليه ومن بينها التّصحيف، ولقد كان في إمكانه أن يذكر ذلك في الرّسالة مما يدلُّ على أنّ المادّة جاهزة، وآليات الدّفاع عن صاحبه والهجوم على مناوئيه كذلك، ولولا خوف الإطالة لفعل. إلاّ أنّه لكثرة ما استعدّ للمسألة وقلّب النّظر في أنواع الحجج التي يمكن أن يقنع بها القارئَ بسخف ما ذهب إليه الخصوم اضطرّ إلى إطالة الرّسالة فذكر ذلك كالمعتذر. ولا شكّ أنّ معنى الفعل المضارع "أتبع" الذي تكرّر مرّتين الترتيب في نطاق بنية المشروع لا في الزّمن لأنّ صاحبنا لن يأخذ في تأليف الأخبار بعد الانتهاء من الرّسالة، ولن يشرع في عمل شعره بعد استيفاء أخباره. فهو يعرف صعوبة الوصول إلى هذه الأخبار وأنّها اجتمعت له و"لا تكاد تجتمع لأحد" وبما أنّها مجتمعة فقد قدّر أنّ الفراغ من عملها وصنعها لا يتطلّب إلاّ جهد ضمّها ولذلك قال مخاطبا: "وهي تنقضي سريعا". أمّا شعره فقد ذكرنا أنّه يعرفه على التحقيق وعلى التصحيف وربّما لم يحتج الأمرُ إلى أكثر من إخراجه على الإفراد.

[73] الكتاب المذكور، ص. 56.

وأقوى من كلّ ما ذكرنا دلالة على الانتصار العلاقة القائمة في الرّسالة بين المشروع من جهة والحجّة الأمّ التي تولّدت عنها كلّ الحجج في النصّ، وهي حجّة الجهل التي ذكّر بها في كل مرّة، وقلّبها على جميع جوانبها، وأتى بها سائبة أو مشدودة إلى قرنها، كما أشار إليها بمرادفاتها، أو بما هو في معناها[74]. وهو جهل شامل بما يحتاج إليه عمل الشّعر وصناعته من معارف لغوية، وأخبار، وأمثال تبين عن المراد وتقرّب المعنى المبتكَر. وجهل من يعيب أبا تمّام هو الأصل في ما ترتّب عن ذلك من ملابسات أخلاقية مبتذَلة كالعداء والادّعاء والحسد والتوهّم بأنّ "الرياسة لا تتجذب إليه إلاّ بالطّعن على العلماء والوضع من ماضيهم والاستحقار لباقيهم"[75]

وقد تفنّن الصولي في إبراز ذلك الجهل لاسيما في القسم الثّاني من الرّسالة عند استعراضه لنماذج مما عابه الناس على أبي تمام وانتهت به تحاليله الأدبية، ومعارفه اللغوية، إلى التأكّد لا من عجزهم عن فهم شعر أبي تمام وما فيه من طرق جديدة في القول، وإنّما عن إدراك العلاقات القائمة بين هذا الشعر وتجربة الشعراء المحدثين الآخرين، وبينه وبين الشعر القديم؛ حيث أكّدت الشّواهد أنّ الجديد ليس انقطاعا عن التراث الشّعري وإنّما الانطلاق في نهج آخر فرضه الوقت وألحّ به على الناس الحاجات الحادثة، فاقتضى من سالكيه البحث عن طرائق مبتدَعة في صوغ العبارة وبناء الصّورة.

---

[74] انظر على سبيل المثال، الصفحات: 5، 29، 38، 56.

[75] أخبار أبي تمّام، ص. 6.

ولا شك أنّ المطّلع على قسمي الرّسالة والأخبار يدرك السّبب الذي من أجله كان الصّولي يتّسع في الشّرح، ويسترفد مدوّنة الشعر، للموازنة في مسألة أو لتدقيق معنى ويستدعي الأخبار متعاقبة ومتداخلة، بسيطة ومركّبة، لإبرام شيء أو لنقض شيء. وليس هذا إلا لتثبيت صورة العالم في مقابل صورة الجاهل حتّى لا يستوي في ذهن الناس الذين يعلمون والذين لا يعلمون فيخرجون من دائرة فعل الخطاب المناوئ المعارض، ويصدّقون خطاب الذّب والدّفاع، ويحملون على أنّه خطاب منصف عادل.

ولا نفهم الدّاعي الذي دعا الصّولي إلى الاكتفاء بهذه الحجّة إلاّ عندما نصل إلى خاتمة الرسالة وإذا بنا إزاء خطاب يشبه إلى حدّ كبير خطابات التّرويج التي نعرفها اليوم، والتي تبتني بلاغيا على كلّ ما يحرّك في الإنسان الرغبة في الشيء المعروض، ويحمله على اقتنائه اقتناعا بما جاء عنه في الخطاب المُروّج له من امتداح لفضله، وطرق خفيّة مراوغة للتّرغيب فيه دون غيره.

ولم يجد الصّولي أيّ حرج في طمأنة مخاطَبه الحقيقي أو المفتعَل بأنّ الخلاف شيء عارض سيرتفع بارتفاع المتسبّب فيه. ذلك أنّ هذا المشروع سيملأ فراغا، وسيسمح بعلم بعد جهل، وسينتج عنه إجماع بعد افتراق. وله فيما سبق له عمله من أشعار أبي نواس مثال يقيس عليه. ولقد جاءت العبارة هنا أيضا لافتة بما فيها من اعتبارات مالية واقتصادية ذلك أنّ الصّانع الماهر إذا أخرج للنّاس بضاعة بارت كلّ بضاعة سواها، و"تكسّر" ثمنها، وكسدت

سوقها، وانتهى أمرُها إلى الذّوبان والانسحاب لغياب من يطلبها. وهو هنا أيضا يركّز تلك الصورة التي حرص على بنائها لبنة فلبنة من أوّل الرسالة إلى آخرها، يقول:

"وليس يجب – أعزك الله – أن تنظر إلى اختلاف الناس في أبي تمام واضطراب روايتهم لشعره، فإنّهم بعد إتمام هذه النسخة يجتمعون عليها، ويسقطون غيرها، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغي منه، حتّى إنّ النسخة من شعره من غير ما عملته لتُباع بدراهم، قد كانت قبل ذلك تُباع بعددها دنانير، ولعلّها بعد قليل تُفقد فلا تُراد"[76].

إضافة إلى أنّ هذا النصّ مسكون في عمقه بصورة نموذجية في حضارة شفوية "كتابية" هي صورة تعدد المصاحف واختلافها ثم الإجماع على مصحف عثمان، واعتباره النصّ الأوحد والمرجع الشّاهد بتطابق ما جاء فيه مع ما أوحي للنبي، فإنّه يطرح علي القارئ إشكالا لا مناص من مواجهته وهو التّساؤل عن السّبب الذي من أجله ردّ الصّولي كلّ وجوه الاختلاف، في هذا النصّ الأخير، إلى ما يعتري النصّ من اختلاف ناتج عن اضطراب الرواية. وهو أمر لا مردّ له في ثقافة اعتمدت، لفترات طويلة من وجودها، على المشافهة وسيلة لنقل الثقافة من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان والحال أنّ كل الأمثلة التي ذكرها في باب "مما عابه عليه

[76] أخبار أبي تمام، ص ص. 55 – 56.

من لا يدري"[77] ليس فيها ما قام الخلاف فيه على أمر يتعلّق باختلاف الرّواية، وتبدّل شكل النصّ، ولم يشر الصّولي في الشّواهد الشعرية الكثيرة إلى الأمر، ولم يغيّر صوتا بصوت، أو كلمة بكلمة، وقد رأينا عند تحليلنا لوجوه احتجاجه لطريقة أبي تمّام في إخراج ما شنّع الناس من أجله عليه أنّه مدرك تمام الإدراك أنّ الأمر يتعلّق بطريقة في التصوير مختلفة، ومذهب في التقريب بين الأشياء غير معهود، وانتقال بالناس من مراسم في التقبّل إلى مراسم أخرى مختلفة، وانتهى به إدراكه لأهمية ما أقدم عليه الشاعر إلى أن سبّب معاداتهم له أنّه "رأس في الشعر مبتدئ لمذهب سلكه كلُّ محسن بعده فلم يبلغه فيه حتّى قيل مذهب الطائي وكلّ حاذق بعده يُنسَب إليه ويُقفّي أثره"[78].

فلماذا، إذن، ردّ الاختلاف في خاتمة الرسالة إلى تحقيق النصّ، وأكّد أنّ نسخته ستحقّق الإجماع بسقوط غيرها من النّسخ ؟ وهل يمكن أن نحمل كلّ ما ندب النفس إليه من دفاع عن أبي تمّام، وهجوم عنيف على خصومه وعائبيه، من باب التّرويج لمؤلّفه، وتهيئة النّاس للإقبال على اقتنائه أم أنّ في الأمر أسبابا أخرى يجب الكشفُ عنها ؟

لا جدال في حضور البعد الذّاتي في ما قام به ولا شك عندنا، والشواهد النصّية موجودة، أشرنا إلى الكثير منها، أنّ من

---

[77] أخبار أبي تمام، ص. 29.
[78] نفسه، ص. 37.

غايات الصّولي من دفاعه عن أبي تمام واحتجاجه لتجربته الرّغبة في المنفعة المعنوية والمادّية. فأن تغني نسختُه عن غيرها من النّسخ الرّائجة بين الناس أمر يمكّن لصاحبه في تاريخ الشّعر، ويمدّ سلطانه ونفوذه على علماء زمانه، ويضمن له تقدير الأجيال المقبلة باعتباره راوية شعر الشاعر بلا منازع ويثبّت صورتهم لديه باعتباره عالما فذّا، وحافظا للشعر والروايات المتّصلة به في الذّاكرة والصّحائف نادر الوجود، ويدرّ عليه مالا لا من رواج النّسخة فذلك لا يعتدّ به، ولا طائل من ورائه وإنّما من تفضّل أولياء النّعمة الذين يدركون تمام الإدراك الرّيع الذي تعود به عليهم رعاية الفنون والآداب.

ولا يقتصر حضور الذّات حضورا صريحا في النصّ على هذا الجانب. ففي مواطن مختلفة من الرسالة نحسّ بأنّ الصولي يدافع عن نفسه وهو يدافع عن أبي تمّام للشّبه القائم بينهما في وسطيهما: هذا في النقّاد وذلك في الشعراء، فكما أنّ أبا تمّام مسروق ومكروه وناجح محسود، يقتفي الناسُ أثره وينكرون فضله، كذلك الصولي لا يعترف له بعلم ويستنقص الناس ما فعل وإن كانوا عاجزين عن القيام بما يقوم به، ثم إنّهم يسطون على عمله، ويرتزقون منه في دروسهم لذلك كان من أغراض بلاغة الاحتجاج الدّفاع عن النّفس الحاصل من الدفاع عن المُشَابه والمِثْل وجاءت الشّكوى من "جور *الزمان وجفاء السلطان وتغيّر الإخوان*"[79] ترفد التذمّر من كساد

[79] أخبار أبي تمام، ص. 5.

سوق العلم، وطغيان الأدعياء، وافتكاكهم بالقوّة ما ليس هم منه بسبب، والاستقرار بمنازل ليست مجعولة لهم حتّى وصل بهم الحال في تلك الأزمنة البعيدة إلى تأجير "*زبانية*" يسكتون صوتَ كلّ من تحدّثه نفسه بمناقشتهم في ما لا يعلمون. وهي صورة قاتمة لا نظنّ أنّ صاحبنا اختلقها اختلاقا لغاية الدّفاع عن صاحبه وعن نفسه، يقول:

"(..) ثم لا يقنع بالعلم الذي جذب أطرافه، وادّعى جملته، واحتجز عن المناظر له، والمبين عن مقداره بالحجة عليه بقوم أعدّهم لمواثبة من يسأله والانتهار لمن يطالبه حتّى يدّعي من العلوم ما لم يخطر له ببال(..)"[80].

وقد ملأ الحديث عن سيطرة هذا الصّنف من العلماء على الحياة الأدبية والفكرية وما لحقه منهم من تشكيك في علمه، وطعن على ما ألّف، صفحات متتالية طويلة[81] كشف فيها عمّا حذقوه من أفانين التّشهير بما يعمل واغتصاب علمه والارتزاق منه، والاتّجار به واتّخذ من معرفة مخاطبه بما كان بينه وبين واحد من هؤلاء سندا إيراد الخبر كاملا:

---

[80] أخبار أبي تمام، ص ص. 6 – 7.

[81] نفسه، ص ص. 6 – 13. وحديثه في هذه الصفحات عن علوّ أخلاق أستاذيه المبرّد وثعلب من باب الاستثناء الذي يؤكّد صحّة القاعدة.

"وأنت أعزّك الله – تشهد لي من بين الناس أنّ أبا موسى الحامض[82] كان يثلبني عندك ويتهاه ويكثر من عيبي والطّعن على سائر ما أمليته، وأنّه لا فائدة في شيء منه. فلما توفّي وحُملت كتبُه إليك وجدتَ أكثر ما أمليتُه من كتاب *الشامل في علم القرآن*" وكتاب "*الشبان والنوادر*"[83] وما مرّ من شعر أبي نواس قد كتبه كله بخطّه واتّخذه أصولا ينفق منه تفاريق على من يقصده ويطلب فائدته فأكبرتَ ذلك وكثر منه عجبُك"[84].

كما أسهب في وصف سلوكهم في المجالس التي كانت تُعقَد، ولم يكن وكدهم فيها إلاّ التربّص بصاحب المجلس، إن وهم في شيء أو نسي شيئا، ظنّوا أنّهم فوقه، وأعلم منه، وليسوا كذلك في الحقيقة لأنّ ما بحوزتهم لا يعدو بعض الغريب، ومسائل في النحو وكتاب من كتب اللغة نظروا فيه؛ ولو صدروا المجلس وسُئلوا في مسألة واحدة ما أحسنوا أن يجيبوا.

لكن على أهمية هذا البعد الذاتي الذي اكتفينا بالإشارة إلى بعض جوانبه ولم نأت على كلّ ما جاء في الرسالة متّصلا به، ورغم يقيننا من أنّ من أهداف دفاع الصّولي عن أبي تمام وشعره

---

82 نحوي من أصحاب ثعلب جلس موضعه وخلفه بعد موته. توفّي سنة 305 هـ ببغداد، ويقال إنّ لقبه من أخلاقه الشّرسة.

83 [لعلّها الشواذ والنوادر].

84 أخبار أبي تمام، ص ص. 10 – 11.

بوجوه الحجج وصنوف البلاغات الدفاع عن نفسه، و"تلميع" صورته، والترويج لمشروعه الذي بذل في إعداده وقتا وجهدا، فإنّنا لا نعتقد أنّه فعل الذي فعل، وركب الذي ركب من أجل الغاية التي أشرنا إليها وحدها، ولذلك يبقى التناقض القائم بين التحليل الوارد ضمن الرسالة والخاتمة التي يبشّر فيها بإجماع سيحصل قياسا على أمر سبق أن حصل، محيّرا لاسيما ونحن نستبعد أن تكون الخاتمة من باب الترفّق بأولي الأمر وأولياء النعمة حتّى لا نخطر ببالهم ما يثقل عليهم ويكدّر صفوهم، فقد ذكر لصاحبه في متن الرسالة من وجوه الاختلاف ومن الأسباب المفسّرة لوقوعه ما لا ينفع معه هذا التصغير للمسألة، والحدّ من أهميتها في النهاية.

وبقي الآنَ ما لم نحصر هدفه في الترويج لمشروعه، أن نبحث عن وجوه التأويل الممكنة لتفسير التعارض الذي أشرنا إليه. ولعل من أهمها، انتماء الرسالة والمشروع بكامله إلى فترة كان الكلام فيها في الغالب الأعم يدور على نصّ غائب منتثر غير متعيّن، أو هو يدور على تفاريق نص وسيلة حفظه ونقله الذاكرة، فيكون، من ثم، عرضة للتبديل والتغيير، فتُشتَقّ من النصّ الواحد نصوص، وتؤول الرواية الواحدة إلى روايات، ويحدث الاختلاف ويلاحظه الناس أوّل ما يلاحظونه في كل ما يتّصل بالأشكال المغيّرة والبنى المعدول بها عن الأصل، الذي يدركون وجوده بالاختلاف الحاصل بين الروايات وإن كانوا لا يستطيعون الوقوف عليه بسهولة. ولهذا السبب احتاجت الآداب القديمة إلى علماء يُنشَّؤون على الخبرة

بالنّصوص، وحسن تحقيقها، والاهتداء إلى نصّها الأصل، وتثبيت ملكيتها بإعادة النظر في نسبتها إلى قائليها، لفكّ التداخل والخلط الواقعين فيها. فنشأت عن ذلك عقلية كاملة، وطريقة في النظر والاعتبار وتحديد الأولويات وطرق التعامل مع الظواهر لا تزال بعض مظاهرها موجودة إلى اليوم. ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنّ تاريخ النقد عند العرب، مثلا، لا يخرج ترتيب مراحله، وبعض قضاياه الكبرى عن هذا الإطار. فليس من باب الصدفة أن كانت الحلقات الأولى منه مهتمّة بتحقيق النسبة، باحثة عن أقوم المسالك إلى التمييز بين الصريح والهجين، والصحيح والموضوع؛ وليس من باب الصدفة أيضا أن كانت السرقة، وكان تحديد طرق الأخذ وترتيب الحكم المناسب لكل طريقة طريقة من أمهات مسائل النقد؛ وإلى هذا تُردّ أيضا نزعة التفسير والشرح التي درج عليها القدماء وهي نزعة لا تكاد تتجاوز ما هو مرسوم في ظاهر النص، وإن هي اختلفت فالاختلاف متولّد في الغالب عن تأويل لفظ، وتقديم معنى فيه على معنى: كأن يخرجه مُفسِّرٌ على الحقيقة ويراه آخر مجازا، أو الذهاب إلى وجه في الإعراب مغاير لأنّ ذلك يوافق بنية المعنى أكثر مما يوافقها الوجه المقترَح وإذا تكافأت الوجوه رأيتَ الشارح يستعرضها جميعَها مشيرا إلى ما يؤدّي إليه الأخذ بأحدها من تغيّر في بنية المعنى ولا تخلو الشروح أيضا من نزعة إلى تحقيق النصّ بتفضيل رواية على رواية لما في الرواية المستضعَفة من تصحيف وفساد، أو لأسباب أخرى تتصل بالسّند.

والأغلب على الظنّ أنّ صاحب الرّسالة كان يشير، عند قول ما قال، إلى ما صادف في شعر الرّجل عند عمله إياه من أبيات كثيرة اختلف الناس في أمرها وإلى ما بذله من جهد في ضبط صورتها وشرح معانيها وتخريج معتّاصيها، لا إلى الأمثلة القليلة المذكورة في الرسالة التي لم يكن مردّ الاختلاف فيها تصحيفا أو تحريفا. وبمعالجته هذا الكثير سعى الصولي إلى تحقيق الإجماع عليه وإقناع النّاس بأنّ روايته له أحجّ الرّوايات وأوفاها بمقاصد الشّاعر ونظام المعنى في القصيدة.

والمسألة ذات أهمّية كبرى. فالانتقال بالنصّ من صورة إلى صورة في أيّ مستوى من مستوياته ينجرّ عنه تغيير في المعنى وفي طريقة انتظامه فيه. وتزداد المسألة أهمية إن تعلّق الأمر بشاعر اتّسع الاختلافُ في شعره وتنوّعت أسبابه حتّى كادت تمسّ مكوّنات الشّعر جميعها في اللفظ مفردا وفي طرائق البناء وأساليب العبارة.

ويصبح ترجيح قراءة على قراءة فعلا موجّها وإن حرص صاحبُه فيه على الالتزام بمناهج التحقيق وأحاط عمله بما يضمن له الصّدق والعدل. فتعدّد الوجوه في القراءة يشرع الباب أمام "الذّاتي" ويسمح لمن يختار بتحكيم عقائده وميوله في ما يختار، فتفقد القراءة "براءتها" لأنّها لا مناص من أن تكون، في جهة من جهاتها، في خدمة أهداف صاحبها وسبيلَه إلى بلوغ مقاصده.

والأهداف والمقاصد، في ما نحن فيه، هي، كما حاولنا أن نبيّن، الدّفاع عن شعر أبي تمّام، وبالاستتباع شعر المحدثين، دفاعا لا

يلين ولا يتراجع أمام مطاعن الطّاعنين ولو تراجُعا ضئيلا سبيله في ذلك اختيار القراءة / الرّواية التي تقطع دابر الخلاف أو تحدّ من شدّته بردّه إلى ما تختلف فيه الشعراء عادة وتتعدّد مسالك فهمه وتخريجه.

وكان الصّولي، وهو يتّجه إلى مزاحم بن فاتك، يأمل، لتقدّمه الزمني، أن يلقى ما جمع من شعر أبي تمام لدى النّاس رواجا فينسون صورةَ ما وصلهم منه منتثرا غير مجموع ويصبح عملُهُ مرجعا يحتكمون إليه ويأخذون بما جاء فيه لمكانة الرجل في زمانه ولعلمه بالشعر وباعه في عمل الأشعار وجمع الأخبار. والثقةُ والطمأنينةُ الغالبتان على خطابه سببهما الرّواج الذي لقيته بعض أعماله السّابقة كجمعه ديوان أبي نواس وإن كنّا لا نرتاح تمام الارتياح لما قاله عن سيرورته ولَهَج النّاس به ونسيانهم غيره.

إلا أنّ قياس الصّولي ما سيكون لعمله شعر أبي تمام من سيرورة على ما كان لشعر أبي نواس على افتراض أنّ ما حدّث به صحيح لا يخلو من سهو عن فارق مهمّ بين الشّاعرين نستمدّه مما كتب النقّاد القدامى عنهما وعن شعريهما. ونكاد نجزم بأنّ الأمرَ ليس سهوا وغفلةً وإنّما هو من باب القياس المغالطي الذي يكسب به المتكلّم المخاطَب بإلهائه عن إعادة النظر في ترابط المقدّمات والنّتائج ومراجعة التّماسك المنطقي لبنيته. وإلاّ فالفرق في نوع الخروج ودرجته بين الشّاعرين كبير وردُّ الفعل تجاه ما فعلاه مختلف. فأبو نواس أحرجهم بمواضيع القول وأبهجتهم كيفيّاتُه التي جوّد فيها وأبدع مع غاية الرّفق والتلطّف وأحرجهم أبو تمام بكيفيات القول وبعض مواضيعه بحملهم على

ما لم يألفوا وإجبارهم على أن تكون سبيلهم إلى شعره وعرة كأداء لا مهرب فيها من التأويل والتأويل فيها لا يضمن بكلّ حال التحصيل.

لم يخفَ هذا على من جاء بعده ولم يُكتب لما روَى من شعر أبي تمام أن يُجمِع الناس عليه، ولم تنهِ بعضُ اجتهاداته الخلاف بل ربّما ساهمت في تأجيجه لأنّ كثيرا من الشرّاح والنقّاد، ومنهم من لم يشتهر بعدائه لأبي تمام، انتبهوا إلى أنّ روايته في مواضع الخلاف لم تكن خالصة للعلم وإنّما كانت محاولة لفكّ الإسار عن رقبة صاحبه وإن كلّفه ذلك اقتراح ما لم يوافقه عليه أحدٌ أو الذّهاب في الاشتقاق مذهبا لا تبيحهُ اللغة.[85]

فليس من المستبعَد أن يبقى ما ذكرنا مهيمنا على تفسير الاختلاف في شعر شاعر فيكون المُقَدَّم وإن جرى صاحبه في المتن على غيره من التفاسير.

---

[85] انظر ما جاء عند الرّبداوي في كتابه "الفنّ والصنعة في مذهب أبي تمّام"، المكتب الإسلامي، 1971، ص. 108 وما بعدها. وانظر خاصّة الباب الثّاني من أطروحة منصف الوهايبي "صناعة الشّعر عند أبي تمّام ومكوّناتها في قراءة القدامى وفي النصّ الشعري"وعنوانه "مَعْلَم على الطائيّة لغة" (ص ص. 94 وما بعدها). وهي أطروحة مرقونة مودعة بكليّة الآداب، منوبة. والأكيد أنّ مبحث عمل الشّعر وتفسيره مهمّ للكشف عن رغبة الصّولي في اختيار ما ينهي الخلاف أو يحدّ منه وبذلك يساهم في تأكيد ما حاولنا أن نبيّنه من رغبة عارمة في الانتصار للشاعر و"تنزيه" شعره عن كلّ عيب.

وقد يُفسّر الأمر في ما يخصّ أبا تمام بالتفاوت الواضح بين قراءة بعض المحدثين لتجربته وبين فهم القدماء لها وتقدير ما أضافت إلى الشعر وإلى سبل تعاطيه. والمسألة هامة لأنّ تباين الخطابين قد يكون مدخلا إلى سوء الفهم أو التعسّف في التأويل، بتسلّط الخطاب الحديث على القديم، وإدخاله عنوة في دائرته وأفقه، وحمله على تبنّي رؤاه رغم بعد الشقة، وتبدّل أسباب المعرفة، وانتقال الكتابة بمفعول تراكم التجارب من أصل إلى أصل، ومن طقس إلى طقس.

فقد وجدت حركات التّجديد في العصر الحديث، ولاسيما تلك التي اجتمعت على مجلة "شعر" في أبي تمام سندا تاريخيا لتبرير ما واجه حركتهم من معارضة، وما مورس على بعض تجاربهم من حظر ومنع فرفعوه إلى منزلة الرمز ونسجوا حوله وحول شعره خطابا ملؤوه بطموحهم، وقدّوه من رؤاهم، وصاغوه بما توفّر لهم من تصورات عن الشعر وعن كتابته غنموا جلّها من قراءاتهم في مراجع أجنبية، ومن اطلاعهم على منجزات إبداعية كبيرة. فإذا بأبي تمام، في مقالهم، من كبار الخوارج عن نهج القدماء في صناعة الشعر، وإذا به يخلخل منظومتهم إبداعا وتلقّيا، ويسلك مسالك لا عهد للناس بها، ويبني من الاستعارات ما يُعتَبر نقلة نوعية هامة في تاريخ الكتابة الشعرية، حتّى كادوا يتحدّثون بشأنه عن قطيعة وتحوّل في الكتابة من أصل (Paradigme) إلى أصل، واعتبروا المواقف منه، مواقف من عابوا بعض شعره، إقصاء مردّه نزعة الثقافة العربية إلى

النسج على المنوال، والاقتداء بالنموذج والمثال، ونبذ فكر الاختلاف، وتأكيد ضرورة الانسجام والائتلاف. ولقد ساهم أدونيس بالقسط الأوفر من هذا الخطاب الذي حدّد بشكل حاسم رؤية الدارسين المحدثين لشعر أبي تمام، ووجّههم إلى قراءته حسب الشّبكة التي نصبها في كل ما كتب عنه، فكانوا كلما صادفوا حوله اختلافا لمذهبٍ في تأتِّي المعنى أو بناء الصورة قرؤوا ذلك الاختلاف على أنّه محاصرة وقمع، ومحاولة ردّ المارق إلى الجادّة، بتأليب الناس عليه، ودفعهم إلى التشنيع على شعره بلا هوادة.

ولا يهمّنا هنا أن نناقش هذا الخطاب في مكوناته، والخلفيات النظرية التي تنتظمها، وإنّما يهمّنا أن نلفت النظر إلى أنّه في جوهره خطاب تطويع واحتواء، ليست الغاية منه فهم طريقة القدماء على اختلاف نزعاتهم في تقبّل شعره في سياق تاريخي ثقافي ومعرفي ساهم في تحديد ما كانوا ينتظرون منه والحاجات التي رغبوا أن يسدّها، وإنّما الغاية منه ترويج بنية الشّبه بل المطابقة بينهم وبينه حتى يوفّروا لحركتهم المبرر التاريخي، وتبدو المواقف منهم إعادة لمواقف الناس من تجربته، سدّا للذرائع، ووقوفا أمام كل قراءة لتلك الحركة تشكك في أصالة مشروعها، وصدق نواياها. لذلك تحدّثت عن خروج وقطيعة حيث تؤكّد التجربة الاستمرار والتواصل وقد تكون هذه القطيعة الموهومة والمفتَرَضة التي لم يردها أبو تمام حجبًا لقطيعة يريدونها ولكنّهم لا يريدون تحمّل تبعاتها وجريرتها. ولمن أهمّ ما قد ينجرّ عن هذا الخطاب الذي يعبّر

عن رغبة صانعيه أكثر مما يعبّر عن حقيقة نقدية أو تاريخية، أنّه يقوم حاجزا بين القارئ الذي تشبّع به والنص النقدي القديم الدائر على أبي تمام.

صحيح أنّ كتب الأدب والنقد ومن ضمنها "أخبار أبي تمام" للصولي تذهب إلى أنّ للرجل مذهبا عرف باسمه جمع حوله الأتباع، وأنّه رأس في الشعر يقفّي النّاسُ أثرَه ويأتمّون به، وفي الأخبار المتعلّقة به إشارات إلى التباين الفاصل بين طريقته في كتابة الشعر وطريقة العرب، ويذهب الحماس ببعض المتشددين عليه إلى تأويل التباين بالتدافع والنّبذ، وكاد يجمع مؤيّدوه ومعارضوه على أنّه غاص في بعض شعره على خفيّ المعاني وعويصها، فأجبر الناسَ على كدّ الروية وبذل غاية الجهد للفوز بها، هم الذين درجوا على البيان والتبيين وقرب المعنى وسهولة المأخذ. إلا أننا لم نرهم، رغم كل ما ذكرنا، يقولون عنه وعن شعره ما يقوله فيه الخطاب المعاصر. فليس أبو تمام عندهم خارجا عن نهج القدامى، مخلخلا لنواميس الكتابة التي ألفوا، هادما إياها لبناء شرع جديد يزهّدهم في مسالك القول عندهم، ويرغّبهم عن الاستمرار في انتهاجها، بل نجدهم يعتبرون شعره مواصلة لشعر القدماء وإن أفرط في إتيان ما كانوا يأتونه على الاقتصاد والاتّزان، وغيّر من جدول المعاني الجارية في الشعر بإضافة سجلات كان القدماء يستبعدونها لأنّ فهمها يحوج إلى ثقافة لم تكن مبسوطة معروفة، أو لأنها كانت تحرج الحواجز التي أقاموها بين أنواع الكتابة بتحديد ما يصلح

لكل نوع نوع منها. من هنا كانوا لا يحفلون في الشعر بفلسفي الكلام ويرون أنّ فتح فضاء القصيدة للعلوم الوليدة مهلك لطاقة الشعر فيها، محوّل لها عن طبيعتها. وتجرّأ على قاعدة من قواعدهم الأثيرة في التوليد والاشتقاق وتعليق الكلم بعضه ببعض وهي الانتهاء حيث انتهى العرب والوقوف حيث وقفوا، فكان يصنع من الأخلاط اللغوية ما تضيق عن بعضه كيمياؤهم، ولكنهم كانوا، مع كلّ هذا الذي يستعرضونه، مقتنعين غاية الاقتناع أنّ الرجل من أكبر الذين اشتدّ بشعرهم عمود الشعر وقَوِي، ومن أكثر المحدثين قدرة على إتيان القديم وبراعة في صوغ القصيدة على ما تقتضيه فحولة الشعراء. ولهذه الأسباب كان الدفاع عنه والانتصار لمذهبه عند الصولي وعند غيره يقومان على إقناع القارئ بأنّ ما أتى في شعره معدولا عن السّمت غير مألوف ليس، على ما يقدّر بعضُ من ليس لهم العلم الكافي بنسج الروابط وإقامة العلاقات، غريبا عن القدماء وإنّما هو أصيل في تجربتهم وإن اختلف عنها فاختلافه من جهة الكم لا من جهة النوع كما يُقال.

ولذلك لا نستغرب أن يبقى خطاب الصولي عن الاختلاف في أمر أبي تمام في فلك النقد كما حذقه هو وحذقه غيره من نقّاد عصره، وأن يبقى الاختلاف في ذهنه مرتبطا بغياب النص واضطراب الروايات وما ينجرّ عن هذا الاضطراب من وجوه التصحيف والتبديل لا بما تحت ذلك الاختلاف من صراع في الرؤى وتباين في تصوّر نهج الصناعة، والمسالك المؤدّية لها، وإن كان تواصل السنن

واستمرارها ليس بمانع للشعراء الكبار من أن يطوّروها ويجتهدوا لبناء طرق خاصّة بهم يتبعهم فيها غيرهم من الشعراء، بالجرأة والشجاعة التي يجب أن تكون للشاعر حتّى يوسّع من دائرة إجراء اللغة، ويفتح بما ينجز إمكان حدوث ما لم يُنجَز، وهو ما سعى إليه أبو تمام في بعض شعره الذي أخرج معانيه على غير ما ألفت طرق العرب الجارية المستقرّة، وأبعد في بناء الصور والاستعارات، واعتبر أنّ أثر الشعر الحق يحصل من طريق الفكر لا من طريق الانفعال، فحاول أن ينقل الناس من مراسم في التقبّل إلى مراسم أخرى، لما كان يجد من حوادث تبشّر بتحوّلات بدأت رياحُها تهبّ على بنية المجتمع العربي الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني هجريا وبداية الثالث.

عن هذا كان الصولي يدافع دفاعا رأينا أنه يتحوّل في الغالب الأعم إلى انتصار له ووقوف إلى جانبه وإلى جانب هذا الشعر المحدث الذي يعتبره أليقَ بالدهر. وأصحابه انتهى إليهم شعر القدماء فإن هم أخذوا منه معنى أجادوه ولهم أشياء "لم يتكلم القدماء بها ومعان أومأوا إليها فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان والناسُ له أكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثّلهم ومطالبهم"[86].

ومن مظاهر بلاغة الانتصار في الرسالة عدم التنازل عن شيء والتبرير بكل وجه فلقد كان الصولي حريصا على تحصين

---

[86] أخبار أبي تمام، ص. 17.

شعر أبي تمام دون أدنى مطعن، ولم نره يتنازل لمن آخذوه بشيء، أو عابوا عليه شيئا، أو شنّعوا عليه في شيء، عن شيء. والسياق الوحيد الذي وردت فيه صيغة تفيد إمكانية أن يخطئ أبو تمام[87] كانت مبنية على ما يفيد الاستحالة ولم يكن الغرض منها إلا التسليم للخصوم لكي يكون انقلاب الحجة عليهم أشد وأعتى.

ومن مظاهر عدم التنازل والتشدد في الموقف حشره جميعَ من عاب على أبي تمام شيئا من شعره فئة واحدة، رغم المحاذير التي يدلّ عليها تقسيمه إياهم إلى صنفين وهي محاذير شكلية تخدم السياسة الكليّة التي بُنيت عليها الرسالة وهي الظهور بمظهر الحياد والعدل لممارسة التعصّب والانتصار في الباطن، وإلاّ فإنّه لا فرق بينهم عنده إلاّ في الأسباب المفسّرة للموقف، فموقف من نعتهم بـ"*بعض العلماء*"[88] جاء من إلفهم التقليد، وسلوك سبيل الغير فلما لم يجدوا من يأخذ بأيديهم في مجاهل هذا الشعر الحادث أنكروه بينما يصدر "الصنف الآخر" أو "الصنف الثاني" عن الجهل والادّعاء والحرص على أن يجري لهم ذكر ولو في النقص.

ويؤكّد شكلية هذه المحاذير وأنّه يعامل كل من قالوا في شعر أبي تمام وفي الشعر المحدث بما ينقص من قيمته، المعاملةَ نفسها بناؤُه الحديث عن الصنف الثاني الذي أغلظ للمنتسبين إليه

---

[87] أخبار أبي تمام ص. 32.

[88] نفسه، ص. 14.

القول، ونعتهم بأرذل النعوت على نماذج مما عابوا عليه، نجد، بالرجوع إلى الدراسات التي اهتمّت بتفاصيل الحركة النقدية حول أبي تمام[89]، ما يشبه الإجماع على استنقاصها في كلّ الأوساط من لغويين ونقّاد وشعراء وكتّاب دواوين وقد تواصل النقد والاستنقاص إلى ما بعد الصولي كما سنرى. والأغلب على الظنّ أن هذا هو السبب الحقيقي الذي من أجله فضّل عدم ذكر الأسماء حتّى يستطيع بناء خطاب عامّ، يصلح أن يكون ردّا على كل المواقف رغم ما قد نصادف بينها من تفاوت في العيب وفي درجة التشنيع. ثم إنّ في عدم تعيين الأسماء والاكتفاء بالإشارة إليها إشارة مبهمة، خاصيّة جوهرية من خصائص أدب الردود وهي تعلّق الردّ بخطاب سابق، لا نعرفه إلاّ من خلال ما يحدّثنا به عنه الرادُّ، وهذه العلاقة اللامتكافئة بين الطرفين تفتح الباب أمام ضروب التصرّف والتطويع بما يخدم غرض المخاطِب، ويُسهّل عليه مهمة إقناعِ المخاطَبين واستنفارهم لتبنّي موقفه، ورفض موقف من يردّ عليهم في غياب الرّقيب، والطّرف المناوئ المتربّص بكلّ إخلال بمبادئ المناظرة والمجادلة والردّ، وبكلّ زيغ في تقديم الرأي موضوع الرّدّ.

وتجنّب التّسمية عند الصولي داخل كما ذكرنا في هذه السياسة. ويدخل ضمنها أيضا الاكتفاء بالتعبير عن موضوع الردّ بألفاظ عامة، يختارها من سجلّ لغوي سلبي يسوّي به بين كلّ

[89] انظر دراسة محمود الرّبداوي التي وقعت الإشارة إليها في الهامش 16.

درجات الاعتراض وإن كان ذلك الاعتراض من باب النقد حتّى يسدّ كلّ إمكانية لإبداء الرّأي في شعر من يدافع عنه إلاّ إذا كان ذلك الرّأي تقريظا واستحسانا وإعجابا. فكانت الكلمات الأساسية التي دارت حولها الرسالة هي: *"الاجتناب" و"الإنكار" و"العيب" و"الطّعن" و"التّشنيع"*[90]. وقد استعملها الصولي أوعية صبّ فيها المواقف بلا تمييز ولا استثناء، حتّى أنستهُ التّصنيف الذي انطلق منه في بداية الرّسالة ويفهم منه القارئ أنّه إنّما أتى به ليستثني أستاذين من أساتذته هما المبرّد وثعلب، وسبب الاستثناء ربما لا يكون الدّين الذي لهما عليه وإنّما لأنهما خرجا، فيما يخص أبا تمام، من حالة 'لجهل بشعره وبشعر المحدثين بالإقبال عليه وفهمه فأصبحا من أنصاره بعد أن كانا، ولاسيما ثعلب، من ألدّ خصومه، كما أنسته المصدر اللغوي الذي يعدُّ أقلّ المصادر المستعملَة إيغالا في استنقاص الرّجل وشعره وهو "الاجتناب" الذي لم يعد إليه، وأقصاه من قاموسه لفائدة مصادر أثبت منه قدما في القدح، وأوضح موقفا.

فتغييب أسماء المقصودين بالحديث، والإشارة إليهم إشارة مبهمة على هذا النّحو: *"قوم"*[91]، *"من جهله"*[92] *"بعض الناس"*[93] *"بعض*

---

[90] لكثرة جريان هذه الألفاظ في الرسالة لا نشير إلى صفحات بعينها.

[91] أخبار أبي تمام، ص. 4.

[92] نفسه، ص. 5.

[93] نفسه، ص. 14.

العلماء"[94] "الصنف الثاني ممن يعيب أبا تمام"[95] "من لا يدري"[96] "هؤلاء"[97] "عائب أبي تمام"[98] "من لا عقل له"[99] "من لا يعرف جيدا ولا ينكر رديئا إلاّ بالادّعاء"[100] "هذه الطبقة"[101] "هؤلاء الجهلة"[102].

وتغييب خطابهم واختصار مواقفهم في عدد من الألفاظ ليست إلاّ تنويعا على أصل معنوي واحد القصد من استعمالها رسمْ قولهم من معناها الظاهر، فيما يوحي بالظلم للمقول فيه، والتعسّف في الحكم ليكون الردّ، لمن قرأه أو سمعه، إنصافا، وتعديلا للمقاييس أو الموازين التي أخلّ بها خطاب المناوئين؛ إنّ هذين الشكلين من التغييب لمن أبرز ما يخدم غرض الانتصار بهذه القدرة على التلاعب بخطاب الآخرين، وإيراده على النحو الذي يخدم غرض المتكلم، والإعراض عن التفاصيل وعن تعيين الآراء ونسبتها ليكون الخطاب العام كما سبق أن أشرنا شاملا، لا يميّز بين موقف وآخر، ولا يرتّب تلك المواقف في سلم حتّى لا يكلّف الرادّ نفسه

---

[94] أخبار أبي تمام، ص. 14.

[95] نفسه، ص. 28.

[96] نفسه، ص. 29.

[97] نفسه، الصفحات. 31، 37، 41، 46.

[98] نفسه، ص. 37.

[99] نفسه، ص. 38.

[100] نفسه، ص. 38.

[101] نفسه، ص. 39.

[102] نفسه، ص. 56.

تنويع الردود، لأنّ ذلك قد يحمله على المطاوعة، وإرخاء العنان، والتسليم للخصم بما لا مفرّ من التسليم له به، فيتصدّع الحصن، ويعتوره الثّلم، ممّا قد يؤذن بذهاب مناعته فتقوى الرغبة في أخذه والتسلل منه إلى ما يُحصّن.

وهذا الحرص على المناعة والتشدد على الرّأي المخالف، بقطع النظر عن درجة مخالفته، والأسباب المؤدّية إليه، سيعرّض خطاب الانتصار إلى أمرين:

- الاحتجاج لكل شيء بما اتّفق من الحجج حتّى تنقلب الأمور إلى ضدّها لكثرة ما يبدو عليها من الافتعال، ومن الخروج عن المقادير، بل وعن حقائق الأمور. فما كان يضرّ أبا تمام أن يقال إن في شعره بعض النقص الذي لا ينقص من منزلته، ولا من تقدّمه غيره من الشعراء ؟ ألم يكن من الأجدى التسليم بأنّ "التين والعنب" و"الهذيان بالمواهب" و"ماء الملام" طرق ابتدعها ولكن قدرتها على توليد الفعل الشعري ليست ثابتة ؟ لماذا نكلّف النفسَ الاحتجاج لما يصعب الاحتجاج له ؟ ولماذا نعتبر التسليم للخصوم بمثل هذا والاستغناء مقابل ذلك عن الحجج الواهية[103] خطرا على تجربة كلّها ؟ وهل يعني هذا الموقف المتشدد أن مذهب الطائي لا ينبني إلاّ على هذه الطرق في تعليق الكلم؟ ثم من قال إنّ هذه المطاعن وغيرها تأتي على شعر أبي تمام وتستهلك أستاذيته فيه ؟

---

[103] انظر مثلا، ص. 30 وص 32.

إنّ كلّ هذا الحرص متولّد من الخوف، ولذلك بني النصّ على المبالغة والإفراط واتخاذ بعض المواقف المتطرّفة من أبي تمام[104] ، ولا نظنّ أنها كانت غالبة، نموذجا يمثّل المواقف جميعها مما يؤكّد أنّ الدفاع عن التجربة يقتضي القضاء على كلّ معارضة، وعدم التنازل لأصحابها عن أيّ شيء ولو كان عين الحق.

- بقاؤه خارج السّرب، وعلى هامش الحركة النقدية قبله وبعده لأنّ منطق تلك الحركة يقتضي، وإن اعترفت للشاعر بالتفوّق والاقتدار، وبأنّه رأس مذهب وزعيم جماعة رفْعَ العصمة عنه، والإشارة إلى ما في شعره من جيّد وقد يكون كثيرا، وما في شعره من سقط ورديء ولو كان أقلّ من القليل؛ إلاّ إذا كان الناقد، كصاحبنا، متّخذا من مذهب الشاعر عقيدة شخصية ينصرها ويدافع عنها حتّى لا يقع تطويقها من خصومها وربّما القضاء عليها.

ولم يتأثّر النقاد الذين جاؤوا بعد الصولي بخطاب الصولي، ورأوا في شعر أبي تمام من الفضل والبراعة والإبداع ما أدهشهم، وما

---

[104] عرفت زمرة من الشعراء بعدائها لأبي تمام والتشنيع عليه بكل وجه منهم عبد الصمد بن المعذّل وأبي هفّان ودعبل الخزاعي وسبب عدائهم لا علاقة له بفنّ الشعر وهو سبب يرفع من قيمة أبي تمام فقد فُسّر ذلك بالقول المشهور: "ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحدا أيّام أبي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه"، انظر تفاصيل ذلك في الريداوي، الكتاب المذكور، 1/ 48 وما بعدها.

من أجله استشاطوا غيظا عليه لأنّه يترك في بعض شعره ما يجرّئ خصومه ليقدحوا فيه وينكروا فضله.

فعبد القاهر الجرجاني (ت. 1078/471) وهو من أكبر المعجبين بأبي تمام، المناصرين لمنهجه فيه، لما بين تصوّره للمعاني وكيفية بنائها من اتّفاق مع وضع المعنى وهيئته في شعر هذا الشاعر، لم يتردد في إبراز بعض مواضع الوهن فيما نظم، واستهتاره بالمواضعات الواجب احترامها عند صناعة الأشعار وبناء المعاني، وقد اتّخذ من بعض الأبيات التي أعلى من شأنها الصولي، وأتعب نفسه في الاحتجاج لاستقامتها، شواهد بيّن، بناء عليها، ذلك الوهن والاستهتار:

"وقد عرفتَ ما جناه التهاون بهذا النحو من الاحتراز على أبي تمام، حتّى صار ما يُنعى عليه منه أبلغ شيء في بسط لسان القادح فيه والمنكر لفضله وأخصر حجة للمتعصّب عليه وذلك أنّه لم يبال في كثير من مخاطبات المدوح بتحسين ظاهر اللفظ واقتصر على صميم التشبيه وأطلق اسم الجنس الخسيس كإطلاق الشريف النبيه كقوله: [خفيف]

وإذا ما أردتَ كنتَ رشاءً   وإذا ما أردتَ كنتَ قليبا

فصكّ وجهَ المدوح كما ترى بأنّه رشاء وقليب ولم يحتشم أن قال: [كامل]

مَازالَ يَهذِي بالمَكَارِمِ والعُلَى   حَتَّى ظَنَنَّا أنَّه مَحمُـوم

فجعله يهذي وجعل عليه الحمّى، وظنّ أنّه إذا حصل له المبالغة فـي إثبات المكارم له وجعلها مستبدّة بأفكاره وخواطره حتّى لا يصدر عنه غيرها، فلا ضير أن يتلقّاه بمثل هـذا الخطاب الجافي والمدح المتنافي (..)"[105].

---

[105] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، لبنان، دار المعرفة ، 1981، ص.220.
النص مليء بالأحكام النقدية الدالة على إدراك الجرجاني لمزالق أبي تمام فـي شـعره وأهمّهـا تـركه أحيانا المعنى خامّـا بـدون صـناعة لفظية تهذّبه وتجعله مستساغا مخرجا على ما تقتضيه وجوه المناسبة والاحتراز وقد ذكر بعضها قبيل هـذا النصّ (ص. 219) عندما بيّن "أنّ الصفات المذكورة لا يواجه بها الممدوحون ولا تُستعارُ الأسماء الدالّة عليها لهم إلاّ بعد أن تتدارك وتقرن إليها أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله: "أنتَ الصّابُ والعسلُ" ولا تقول وأنتَ مادحٌ: "أنتَ الصّابُ وتسكتُ".
والبيت الثاني الوارد في نص الجرجاني ذكره الصولي فـي عداد ما عابه العائبون على أبـي تمام (ص. 32). والفرق واضح بين خطاب الصولي ومنهج احتجاجه على العائبين وبين خطاب الجرجاني الذي لم يتردّد فـي وصف قائله بالرّقاعة "ولم يحتشم" وبفساد الظنّ والغلظة والجفاء، الفرق واضح وضوح المسافة بين خطاب النقد وخطاب الانتصار.

الخاتمة

يحتاج الانتصار، ليفعل فعله في الناس وليروج باعتباره خطاب جمع وضمّ، أن يتستّر تحت أقنعة العدل والموضوعية في الحكم والبحث عن الحقيقة بتحليل المواقف والبحث عن أسبابها وإيجاد المعاذير للبعض منها والاستناد على بعضها الآخر المبني على سوء النية والظلم ولهذا جاءت بنية النص في كثير من المواضع بنية تفسيرية تعليلية قصد إقناع القارئ بالترابط العلّي بين مكوّنات القضية. ولقد رأينا في القسم الأول أهمية أدوات الرّبط الدّالة على التفسير وأدوات الاستنتاج التي ترتّب النتائج عن المقدّمات، كما رأينا غلبة النّزعة إلى المقارنة وهي ضرب من الاحتجاج بالشبيه والمثل يمكّن المتكلم من أن يوجّه السّامع إلى النتيجة التي يريد منه أن يصل إليها وكانت المقارنة أهمّ طريقة أبرز بها الصّولي الظلم الواقع على أبي تمام وتعسّف الأحكام التي تناولته وتناولت شعره واعتمد في ذلك مذهبين متكاملين:

1. إفراده باللائمة على طريقة في القول لغيره من الشعراء مثلها وشبيه بها والطّعن على مذهب له في القول يتبيّن بالبحث أنه جار في كلام العرب.

2. التشدّد في تقويم شعره حتّى يخيّل للسّامع أنّ للنقاد فيه معيارين معيارا لأبي تمام ومعيارا لبقية الشعراء ويأتي التعبير عن موقفه في آخر التحليل في شكل استفهام بلاغي يترك للمخاطب

إمكانية تأويل معناه وإن كان مجال التأويل موضوعا في الغالب بين حاصرتي الاستغراب والاستنكار يكاد لا يعدوهما. ويبذل الكاتب جهدا واضحا لجعل الاستفهام نتيجة حتمية للبنية التي يقيمها بالتحليل والمقارنة والتعليل.

على هذا النّحو يبدو اشتداد اللهجة على المخاصمين وعنف الردّ نتيجة حتميّة لبنية التحليل والتعليل لوضع الأمور مواضعها وردّها إلى نصابها. فبلاغة الانتصار في هذه الرسالة بلاغة سارية في الخطاب في جملته ولا يمكن ربطها بوجه بلاغي بعينه ولا حصرها في أسلوب أو صورة. وهي مندسّة فيه تربط بين مختلف مكوّناته حتّى لكأنّها البنية العميقة النّاظمة لتجلّياته الماسكة بكلّ جزء من أجزائه المتحكّمة في منطق ورودها وانتظامها. فلقد رأينا هذه البلاغة تدعو خطابات أخرى يمكن أن تكون مستقلّة فتحوّلها عن أصلها وتنزّلها بنيةً ومعنًى في هذا الخطاب الحاضن باعتبارها مكوّنا من مكوّناته ووجها من وجوه بلاغته أو أسلوبا من أساليبه. فلقد أشرنا مثلا إلى الطريقة التي تحوّل بها غرض الهجاء في معنى من معانيه إلى كيفية في القول ساهمت في الحطّ من صورة (Ethos) الخصوم والمبالغة في تشويهها حتّى يضمن المتكلم تعاطف السّامع معه وقبوله خطاب العنف والشّتيمة الذي سلّطهُ عليهم. كما أشرنا إلى أنّ الحديث المطوّل الدّائر على الفرق بين الشّعر القديم والشّعر المحدَث ليس من باب الاستطراد كما حاول أن يوهمنا صاحبه وإنّما هو حديث كان لا بد منه في حجاج قام جلّه أو كلّه على مقولة جهل العائبين بما

يعيبون ومعاداتهم له بسبب ذلك الجهل. ولم يكن الإتيان به من باب تبديد الجهل فقط وإنّما كان بالنّسبة إلى صاحبه فرصة للتعبير عن مناصرته للشعر المحدث وإقناعه المخاطَبين بأنّ "حركة التّاريخ" آيلة إلى فرضه وبسط سلطانه بناء على مفهوم للتقدّم فصّلنا القول فيه.

ولهذه البلاغة التي تقوم على ترافد النصوص وقيام بعضها من بعض مقام الوجه أو الأسلوب في بلاغة الجملة أو العبارة خصائص نذكر أهمّها:

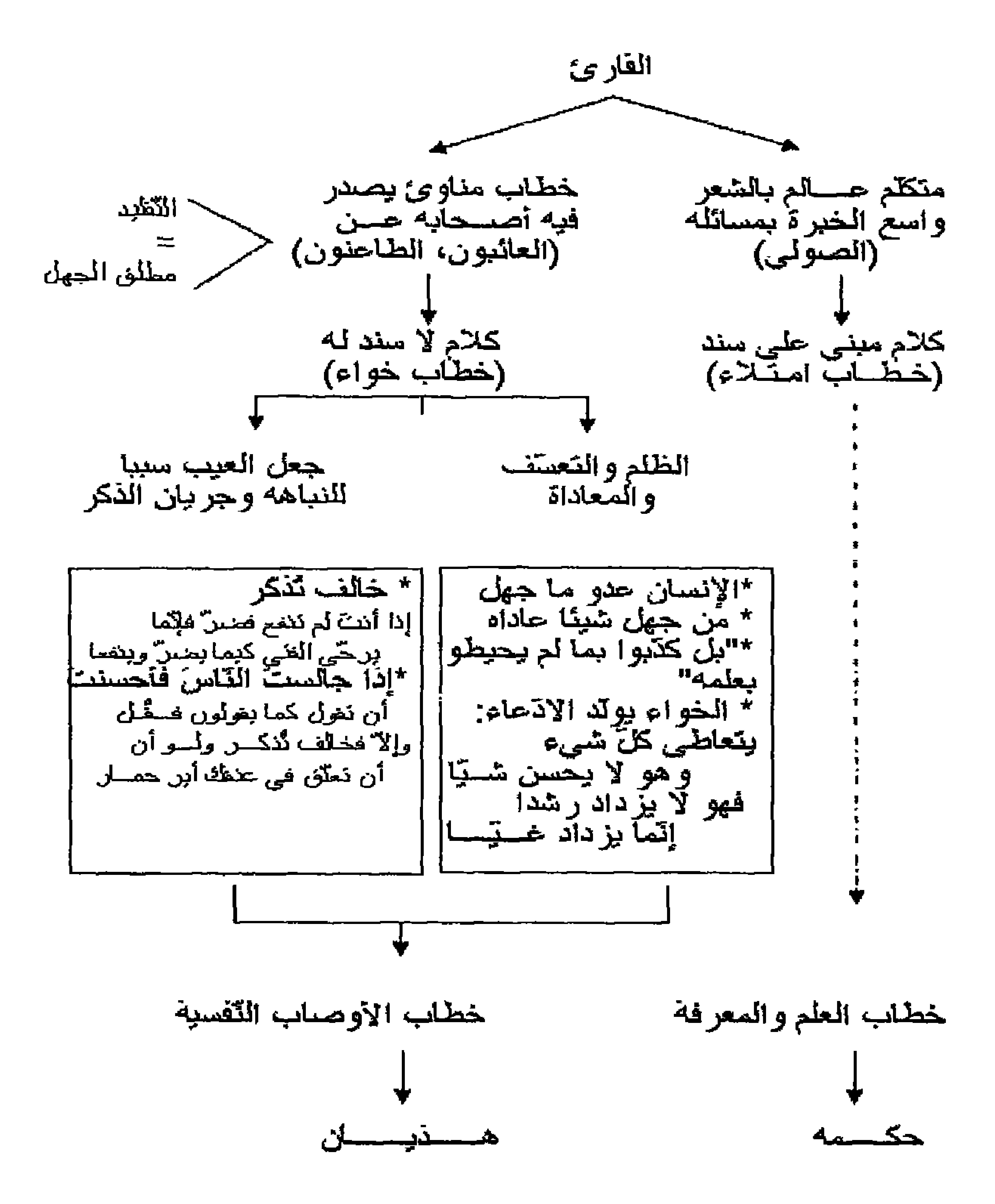
- التبعيد بين القول وإرادة القول. فالمخاطِب، في الرّسالة، لم تتحرّك فيه دواعي القول برغبة ذاتية وإنّما نتج خطابه عن طلب وَرَدَ من "سلطة" لا يُردُّ طلبُها وفي هذا تغييب لكل نية مبيَّتة وسياسة معدّة سلفا فيطمئنّ القارئ إلى ما يُقال له وينقاد إلى ما فيه بسهولة ويغفل عن إرادة الانتصار مما يُمكّن لها في نفسه.

- الإلحاح على صورة القائل لتحقيق المناسبة المطلقة بينها وبين ما نُدبت إليه. ويقوم بناء هذه الصورة على مراحل أهمّها: إخراج صاحبها من غمرة الخلاف ووضعه موضع المحكَّم. وعدمُ ضلوعه ضامن لموضوعيته بما أنّ الأمر في الظّاهر لا يهمّه ولم يفكّر فيه وهذا الجزء من الصورة حاصل من خارج النص ثم تأتي مرحلة ثانية تكون فيها الصورة مشتركة بين خارج النص والنص وهو مظهر الخبرة والعلم والدّراية. فهذا الجانب موجود قبل وجود النصّ إذ على أساسه اختير المتكلّم ليفصل في الخلاف ويعيّن أسبابه ولكنّ التفنّن

في إبرازه عملٌ يتمّ داخل النصّ لذلك رأينا الصّولي في مواطن عديدة من رسالته حريصا على إبراز معرفته ونشر علمه ضمانا لرواج كلامه وحملا للسّامعين على أخذه على أنّه خطاب حقيقة وصدق.

أمّا الوجه الثالث في بنائها فهي المقابلة التّامة في النصّ بين صورتي المخاطِب والمخاطَب المشار إليه بضمير الغائب الجمع! وهو مخاطَب متحدَّث عنه يقوم بينه وبين المخاطِب مخاطَب حقيقي أو وهمي أشار إليه بضمير المخاطبة وهو "مزاحم بن فاتك"، وهذه البنية تسمح للمتكلم أن يكون كلامه حديثا منقولا وإخبارا عن دراية ومعرفة وأن يتصرّف في ما يختار أن يقول وأن يرتّبه على الوجه الذي يرتضيه ويخدم غرضَه وقد أشرنا إلى ما في هذا المذهب في بناء النصّ من إمكان التسلّط والجري في الميدان بلا منافس. وإنّما جاء النصّ على هذا النّحو لأنّ غرضَ الطّالب ليس المناظرة والمواجهة وقرع الحجة بالحجة وإنّما هو الاستفسار والاستفهام وفصل المقال في خلاف تشعّبت مسالكه وتباينت أسبابه ولا يمكن تخليص متشابكه إلاّ أن يكون الذي نتوجّه إليه بالطّلب سلطة مسموعة لا تتقيّد في إيراد ما تورد إلاّ بصورتها لدى الفئات العالمة.وتبعثُ هذه المقابلة في ذهن المخاطَب الحقيقي في النص وهو القارئ زمان كتابة الرسالة وفي الأزمنة جميعها بما فيها زماننا هذا سلسلة من التداعيات تؤول جميعها به إلى الأخذ برأي كاتبها وتغليب مقالته والتسليم لمناهج استدلاله. وقد تشدّ حلقات هذه السلسلة نصوص أخرى من المشهورات أو من المقصورات ويصبح تداخل النصوص المشار إليه رافدا من روافد

ترويج الحجة وكسب الأنصار للموقف. ويمكن أن نمثّل لهذه الترابطات بنموذج نختاره من بين عدّة نماذج ممكنة ونبنيه على زاوية نظر القارئ الذي نقدّر أنّ الرسالة كتبت من أجله إذ لا معنى للانتصار لمذهب والدفاع عن عقيدة إن لم نكن نتوجّه إلى جمهور ونسعى إلى كسب خلق كثير:



وإذا نظر القارئ إلى النص من هذه الزاوية تحققت لصاحبه غايتان:

- التّأثير فيه وإدخاله في دائرة ما يدافع عنه

- إخفاء حقيقة النصّ بتغليف الدّواعي الذاتية بالدّواعي الموضوعية وجعل القارئ يغفل عن وجوه التصرّف في رأي الخصوم ويغفل عن أهمية طريقة المتكلم في تقديمها ولا يساوره أدنى شك في أنّه يخبر عن وقائع ويحدّث عن مواقف هي عين ما قاله بلا زيادة أو نقصان.

وعن هذا التّقابل بين الصورتين الذي بنى التقابل بين الخطابين تأتي خاصيّة أخرى من خصائص بلاغة الانتصار في هذه الرسالة وهي التشدّد في الموقف والتشبّث بالرّأي والغلو في التصدّي إلى درجة تصبح فيها بنية الصدق والكذب بنية ثنائية فاصلة لا تقبل أي وجه من وجوه التداخل بحيث يكون الصّادق صادقا دائما ويكون الكاذب كاذبا في كلّ قول يقوله. ولا يقتصر الأمر في هذا المنطق على الصّدق والكذب فقط فالذي قال شعرا جيّدا واشتهرت بين الناس مكانته فيه لا يمكن أن تزلّ قدمُه وأن تصدق في بعض شعره مقولة المتعرّضين الطّاعنين. وقلنا إنّ الدّافع وراء هذا الغلوّ الذي وجد الصولي بموجبه نفسَه، في تاريخ النّقد، خارج السّرب هو تبنّيه تجربة المحدثين وإيمانه العميق بأنّ شعرهم أليق بالدّهر وأرهف في السّمع وأليط بالقلوب وأنّ الدفاع عن هذه التجربة يقتضي منه أن ينصر رأسها وحامل لوائها "*ظالما أو مظلوما*".

رسالة أبي بكر الصّولي إلى مُزاحِم بن فاتِك

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله أهل الحمد أن يكون له، وأهل النّعمة أن تكون منه، المتفضل على جميع خلقه، والمبتدئ الذي أوضح سبيل حجّته، وسهّل طريق طاعته، وجعل كلّ ما تقع عليه عين، أو ينزع إليه قلب، أو يجتاز به خاطر، دليلا على ربوبيّته، وشاهدا بوحدانيته، وصلّى الله على محمد خاتم أنبيائه وخير رسله، وعلى آله الطيبين، وسلم تسليما.

أما بعد: أدام الله في أرغد العيش، وأكمل السرور، وأمد العمر، وأرضى العمل عزّك؛ وحسّن الزمان الذي قلّ فيه نظيرك ببقائك، ووهب لأهل الأدب سلامتك؛ فإنك جاريتني آخر عهد التقائنا فيما أفضنا فيه من العلوم أمر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وعجبت من افتراق آراء الناس فيه، حتى ترى أكثرهم والمقدّم في علم الشعر وتمييز الكلام منهم، والكامل من أهل النظم والنثر فيهم، يوفيه حقّه في المدح، ويعطيه من الرتبة؛ ثم يكبر بإحسانه في عينه، ويقوى بإبداعه في نفسه، حتى يلحقه بعضهم بمن يتقدّمه، ويفرط بعض فيجعله نسيج وحده، وسابقا لا مساوى له.

وترى بعد ذلك قوما يعيبونه، ويطعنون في كثير من شعره، ويسندون ذلك إلى بعض العلماء، ويقولونه بالتقليد والادّعاء، إذ لم

يصحّ فيه دليل، ولا أجابتهم إليه حجّة، ورأيت مع ذلك الصنّفين جميعا وما يتضمّن أحد منهم القيام بشعره، والتّبيين لمراده؛ بل لا يجسر على إنشاد قصيدة واحدة له، إذ كانت تهجم – لا بدّ – به على خبر لم يروه، ومَثَلٍ لم يسمعه، ومعنى لم يعرف مثله. فعرّفتك أن السبب كما ذكرت، وتضمّنت لك شرح ما وصفت، حتى لا يعارضك شك فيه، ولا يخامرك ريب منه. فرأيت من سرورك بذلك، وارتياحك إليه، وصبابتك به، ما حداني على استقصائه لك، والتعجيل به عليك، وإهدائه في رسالة إليك، تتبعها أخباره كاملة في جميع فنونه: في تفضيله، وذكر من عرفه فقدّمه وقرّظه، والاحتجاج على من جهله فأخّره وعابه؛ ومع من كان يمدحه ويراسله وينتجعه طارئا إليه، وأذكر جميع ما قيل فيه، وإن كان قصدي تبيين فضله، والردّ على جهل الحقّ فيه، فأضعف لذلك سرورك، وزاد له نشاطك.

ثم أرتني عين الرأي بقية في نفسك منه، لم يطلعها لي لسانك، إما كراهة منك لتعبي، أو إشفاقا من الزيادة في شغُلي، مع ما يتقسّمنى من جور الزمان، وجفاء السلطان، وتغيّر الإخوان. فسألتك إبانته وتكليفي جميع ما تريد منه، فعرّفتني أنّ تكميل ذلك لك، وبلوغي فيه أقصى إرادتك، إتباعي أخباره بعمل شعره كلّه معرّيا مفسّرا، حتى لا يشذّ منه حرف، ولا يغمض منه معنى، ولا ينبو عنه فهم، ولا يمجّه سمع، فأسرعت بذلك إجابتي، وعملته بالفكر نيّتي. وتضمّنت عمل شعره لك بعد أخباره في مدحه وهجائه، وفخره

وغزله، وأوصافه ومراثيه؛ وأن أبدأ في كلّ فنّ من هذه الفنون بشعره على قافية الألف والباء ثم على توالي الحروف إلى آخرها، ليكون أقرب عليك متى أردتها. ولم أجد سبيلا إلى مخالفتك، ولا عدولا عن مشيئتك، وإن كان هذا ممّا لا أجيب إليه غيرك، ولا أسمح به لسواك، لا ضنّا بالعلم عن أهله، ولا كراهة لنشره وحمل من يستحقّه له، لكن لما أنا كاشفه بعد ستره، وناشر له بعد طيّه، مما أنا عالم به، وعدل فيه.

رأيت – أعزّك الله – أكثر المتحلين بالأدب في زماننا هذا على خلاف ما عهدت عليه القدماء الماضين، والعلماء الأستاذين: يطلب الرجل منهم فنّا من فنون الآداب فيُقسم له حظ فيه، وينال درجة منه، فلا يرى أن اسم العالم يتمّ له، ولا أنّ الرّياسة تتجذب إليه، إلاّ بالطّعن على العلماء، والوضع من ماضيهم، والاستحقار لباقيهم؛ ويكثر ذاك على لسانه حتى يكون أجلّ فوائده، وأكثر ما يمرّ في مجلسه. ثم لا يقنع بالعلم الذي جذب أطرافه، وادّعى جملته، واحتجز عن المناظر له، والمبين عن مقداره بالحجّة عليه، بقوم أعدّهم لمواثبة من يسأله، والانتهار لمن يطالبه، حتى يدّعي من العلوم ما لم يخطر ببال، ولا كدّ فيه ذهنا، ولا حمل إلى أهله قَدَمًا، ولا عُرف له طالبا، ويظنّ أنه متى لم يعلمه لم يعدّ عالما، ولم يحسب رئيسا.

ومن جليل من رأيناه ولزمناه، وأكثرنا عنه ممّن بعد صيته، وشهد بالعلم له، ووقع الإجماع عليه اثنان: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدى، وأبو العباس أحمد بن يحيى الشّيباني

رحمهما الله. فما رأيناهما زعما قطّ أنهما أعلم الناس بقديم السّير، وما جرى عليه أمر الدّول، ولا بعلوم الأوائل، ولا قصص الملوك، ولا بأخبار قريش، وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – ومبعثه ومغازيه، ومعرفة أهله وأصحابه رحمهم الله، وذلك من أجلّ العلوم.

ولا ادّعيا أنهما أعلم النّاس بأخبار العرب وأنسابها، وأيّام الجاهليّة وأخبار الإسلام، وأمر الخلفاء – صلوات الله عليهم – ووزرائهم وسائر عمّالهم وتبّاعهم، والخوارج والأحداث في أيامهم. ولا أنهما يتقدّمان في الفقه الذي لا بدّ للنّاس منه، والحديث الذي يدور دين الإسلام عليه، ومعرفة أهله وطرقه ورجاله وتاريخهم وأسنانهم. حتى إن قُدّم رجل على رجل، أو أُلحق رجل برجل لم يلقه عرفاه. ولا العلم بأسمائهم وكناهم، والقويّ الثقة فيهم، والضعيف المتّهم منهم. ولا في علم الملوك الذي كأنه مقصور عليهم: من الأشعار التي يُغنّى فيها، ونسبتها إلى قائليها، والسّبب الذي له قيلت، ومن تغنّى في شيء منها، وتبيين طرقها وأجناسها وأصابعها. إذ كان أهل المدينة مع فضلهم وتقدّمهم وزهدهم، لم يكن أحد من فقهائهم يجهل ما يحلّونه من ذلك. ولا في حفظ كلّ ما يحتاج الملوك إليه، ويسألون عنه مما تقع أعينهم عليه، ويُخدمون في الأوقات به، حتى إذا سئل عن أصناف الأشربة وأوصافها، وأحسن ما قالت الشّعراء فيها، وفي سائر الفواكه والرياحين والأزمنة، وصفات الدُّور والبساتين والمجالس والبرَك والصّبوح والغبوق، والصّحو والغيم، والشّمس والقمر، والنجوم والأنواء، وأوصاف الخيل والسلاح، وسائر فنون الغزل، إلى

كثير من أشباه ما ذكرت، والنوادر المرويّة التي تُدخّر للملوك، والنوادر المخترعة المشتقة من عارض يعرض في الوقت.

ولا ادعيا التقدّم في علم شعر المحدثين وأوائلهم، من لحق أول دولة بني العباس مدّها الله وحرسها. ولا أنهما إذا تعاطيا مثل شعرهم أطاقاه، وقدرا على أن يقولا مثله. ولا تضمّنا العلم بلفظة لفظة منه، وتمييز نادره ووسطه، وما كان دونا منه، إلا بردّ لحن، أو خطإ في لغة.

ولا ادعيا التقدم على غيرهما في علم العروض والقوافي والنسب والرسائل والمكاتبات والبلاغة، ومعرفة استراقات الشعراء، وأخذ بعضهم من بعض، والمحسن منهم في ذلك والمسيء. ولا ادعى ذلك مدّع لهما، ولكنهما كانا يتقدّمان في النحو واللغة، ويعلم كلّ واحد منهما من هذه العلوم طرفا، ولا يقول واحد منهما إني لا أغلط، ولا يحتشم إذا لم يعرف الشيء أن يقول: لا أدري.

فانظر – أعزّك الله- إلى هذين الرجلين الجليلين المتقدمين، وما فاتهما من سائر ما عددت لك من العلوم، وموضعهما مع ذلك عند الناس في علو الرتبة وجليل المحلّ، إذ لم يدّعيا ما لم يحسنا، ولا أجابا في الذي لم يعرفا.

وليس أحد ممن أومأت إليه في زماننا هذا يعشر عند أعشق الناس له، ومن رين على قلبه في محبته والتعصيب له، واحدا منهما،

ولا يدانيه في حال. وهم مع ذلك يدّعون علم كلّ شيء، ولا يقولون في شيء: لا ندري ولا نعلم؛ فكانوا كما قال الشاعر:

يتعاطى كلَّ شيء وهو لا يُحسنُ شيئًا
فهو لا يزدادُ رُشْدًا إنما يزدادُ غيًّا

هذا إذا سلمت العلوم، وصحّ السّماع، ويشهد لهم بالمعرفة بالطلب، ولزوم المشايخ، وحضور المجالس. فإن كان في هذا الدخل، أو وقع عليه اغتصاب، أو له اجتذاب، فإنا لله ما دفع الناس إليه من الافتقار إلى غير مرضيّ به، والحاجة إلى غير من يسكن إليه !

وإني لأرى أشياء مما أمليته قديما من المعاني التي تجاذبها الشعراء، وحملها الناس ولم يعرفوها مصنّفة مبيّنة إلا بعد إيرادي لها، قد تخرّمها قوم، وأوردوها مفرّقة في أماليهم، فبانت في علومهم، وامّازت عن تصنيفهم، ونطق مكانها بالغربة فيهم.

وأنت – أعزّك الله – تشهد لي من بين الناس أن أبا موسى الحامض كان يثلبني عندك وتنهاه، ويكثر من عيبي والطعن على سائر ما أمليته، وأنه لا فائدة في شيء منه. فلما توفى وحملت كتبه إليك، وجدتَ أكثر ما أمليته من كتاب "الشامل في علم القرآن" وكتاب "الشبان والنوادر" وما مرّ من شعر أبي نواس، قد كتبه كلّه بخطّه، واتخذه أصولا ينفق منه تفاريق على من يقصده، ويطلب فائدته، فأكبرتَ ذلك وكثر منه عجبك.

ورأيت صنفا من الناس بعد ذلك ليس غرض الواحد منهم إلا أن يقرأ قصائد، ويحفظ بعض غريبها، ويتعلم من النحو مسائل، وينظر من اللغة في كتاب، ثم يحضر المجالس غير مستزيد ولا مستفيد. فإن وهم صاحب المجلس في شيء أو نسيه اختلسه وطار به، وظُنّ أنّه - إذ حفظ بيتا من الشعر، أو معنى من المعاني، لم يحفظه صاحب المجلس – فوقه وأعلم منه، ولعلّ صاحب المجلس يحفظ ألفا مثل ذلك وأكثر، ولو صُدّر هذا الجاهل بنفسه، ثم سئل عن ألف مسألة يجيب فيها المتصدّر كلّها، ما أحسن أن يجيب في مسألة واحدة منها.

وكأني – أعزّك الله – بأشدّ الناس حاجة إلى ما أؤلفه ممّا تقدّمتُ فيه، وأجهلهم به، قد ادّعاه بعد إملائي له، وأجاب فيه بعد شرحي معانيه، لا ينسب ذلك إليّ، ولا يعترف به لي. ولست أبالي ذلك في رضاك، ولا أحفل به مع بلوغ مرادك، وعلمك بعجز المدّعين عمّا كلّفتيه، وأن أحد منهم لم يجسر أن ينشد قصيدة من شعر هذا الرجل ضامنا للقيام بما فيها، فضلا عن إيراد أخباره، والاحتجاج لما عيب عليه، والتّضمّن لجميع شعره، والنّضح عنه، والذّبّ عن حريمه، والتنبيه عن جيده، ليُعلم علوّه في الشّعر، وتقدّمه في الفهم.

وقد كنت عملت "أخبار الفرزدق" فدخلت في ثلاثمائة ورقة، وشرطت فيها ألاّ آتي بحرف ذكر في النقائض، إلاّ ما لا بدّ منه: من ذكر نسبه وأزواجه وغير ذلك، مما لا يبلغ جميعه ثلاثين ورقة. وبدأت بالفرزدق وفي نيتي عمل أخبار جرير والأخطل بعده على الرسم الذي

ذكرته. وإنما بدأت بالفرزدق لشرفه، وقوة أسر كلامه، وكثرة معانيه، وجميل مذهبه؛ فإنه كان مائلا في دولة بني أمية إلى بني هاشم، مجاهرا بفضلهم وتقديمهم.

وقد جئت بذلك في أخباره، ولأنّه يتقدّم عندي الاثنين من طبقته في شعره، أعني جريرا والأخطل. ولا أعيب من يقدّم عليه، إذ كنا نجد أئمة من العلماء لهم فيهم آراء مختلفة، وتقديم لبعضهم على بعض؛ ولكنني في حيّز من يقدّم الفرزدق. وابتدأت في عمل أخبار جرير، فبلغني أن قوما تضمّنوا عملها على شريطتي خلافا عليّ وكيادا لي، فأمسكت عن إتمامها امتحانا لصدقهم، فمات بعض وبقى آخرون، ولم تُعمل حتى الساعة.

وإنه ليخفّ عليّ من حاجتك ما يثقل عليّ من سواك، لتقدّمك وتقدّم أخويك: أبي الفتح وأبي القاسم – أعزكم الله – في العلم والفهم والدين والصّدق، ولما أعترف به من فضلكم، وأشكره من برّكم؛ فأنتم كما قلت في قصيدة تقدمت لي في مدحكم، أصفكم جميعا فيها:

ولا تنْسَ التفضُّلَ من إلهٍ ... عليكَ بإخوةٍ نُجباءَ زُهرِ
يُرَدُّ الطّرفُ من حَذَرٍ عليكم ... كأنكمُ نجومٌ حولَ بدْرِ
أثافِي سُؤْدَدٍ تمّتْ بطَوْدٍ ... فكانَ مُثَلَّثًا، ونجومُ نَسْرِ
وأشْبُلُ غَيْضَةٍ تَحْمِي عَرِينًا ... وأَسْهُمُ صَائبٍ جاءَتْ لِقَدْرِ
فعُمِّى عنكُم طَرْفُ المنايا ... وقُلِّمَ من شَباهَا كلُّ ظُفْرِ

ولا زالَ العــدُوُّ لكــم مطيعًــا   مُقَــارِنَ ذِلّــةٍ وحَليــفَ صغْــرِ

وأنا مبتدئ بالجواب عن خلاف بعض الناس في أبي تمام، والأسباب التي وقع لها ذلك إن شاء الله.

أما ما حُكي عن بعض العلماء في اجتناب شعره وعيبه، ولا أسمِّي منهم أحد لصيانتي لأهل العلم جميعا، وإبقائي عليهم، وحياطتي لهم، فلا تُنكِرْ أن يقع ذلك منهم. لأن أشعارَ الأوائل قد ذُلّلَتْ لهم، وكثُرتْ لها روايتُهم، ووجدوا أئمةً قد ماشُوها لهم، وراضُوا معانيهَا، فهم يقرؤونها سالكين سبيلَ غيرِهم في تفاسيرِها، واستجادةِ جيِّدها، وعيْبِ رديئها.

وألفاظُ القدماءِ وإنْ تفاضلتْ فإنّها تتشابه، وبعضُها آخذٌ برقاب بعض، فيستدلُّون بما عرفوه منها على ما أنكروه، ويقْوَوْنَ على صَعبها بما ذلّلوه. ولم يجدوا في شعر المحدثين من عهد بشار أئمة كأئمتهم، ولا رواة كرواتهم، اللذين تجتمع فيهم شرائطهم، ولم يعرفوا ما كان يضبطه ويقوم به، وقصّروا فيه فجهلوه فعادوه كما قال جل وعز: (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ)، وكما قيل: الإنسان عدوٌّ ما جهِل، ومَنْ جهل شيئا عاداه. وفرَّ العالِم منهم من قوله إذا سُئِل أن يقرأ عليه شعر بشار وأبي نواس ومسلمٍ وأبي تمام وغيرهم، من "لا أُحْسِنُ" إلى الطعنِ، وخاصةً على أبي تمام، لأنه أقْرَبُهُم عهدًا، وأصعبُهم شعرًا. وكيف لا يفرّ إلى هذا من يقول: اقرءوا عليَّ شعرَ الأوائل، حتى إذا سُئل عن شيء من أشعار هؤلاء جهله، وإلى أيِّ شيء

يلجأ إلا إلى الطّعن على ما لم يعرفه، ولو أنصفَ لتعلم هذا من أهله كما تعلم غيْره، فكان متقدِّما في علمه، إذ كان التعلم غيرَ محظورٍ على أحد، ولا مخصوصٍ به أحد؟

ولقد حدثني بنو نُيبَخْت – وما رأيت أبا العباس أحمد بن يحي على جلالته عند أحد أجلّ منه عندهم وكلّهم ينتسب إليه في تعلمه – أنه قال لهم: أنا أعاشر الكتّاب كثيرا وخاصة أبا العباس ابن ثوابة، وأكثر ما يجري في مجالسهم شعر أبي تمام ولست أعلمه، فاختاروا لي منه شيئا، فاخترنا منه له ودفعناه إليه، فمضى به إلى ابن ثوابة، فاستحسنه، فقالَ له: إنه ليس مما اخترت، وإنما اختاره لي بنو نَوْبَخْتَ، قال: فكان ينشدنا البيت من شعره ثم يقول: ما أراد بهذا؟ فنشرحه له، فيقول: أحسن والله وأجاد ! فهذا قصة إمام من أئمة الطاعنين عليه عندهم.

وأما الصّنف الآخر فأنا أذكرهم بعد فراغي من فصل عنّ لي في ذكر المحدثين إن شاء الله.

إعلم – أعزّك الله – أن ألفاظ المحدثين منذ عهد بشار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معان أبدع، وألفاظ أقرب، وكلامَ أرقّ، وإن كان السّبق للأوائل بحقّ الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء؛ وأنه لم تر أعينهم ما رآه المحدثون فشبهوه عيانا، كما لم ير المحدثون ما وصفوه هم مشاهدة وعانوه مدة دهرهم من ذكر الصحاري والبرّ

والوحش والإبل / والأخبية. فهم في هذه أبدا دون القدماء، كما أن القدماء فيما لم يروْه أبدا دونهم؛ وقد بيّن هذا أبو نواس بقوله:

صفـةُ الطُّلـولِ بلاغـةُ القَـدْمِ فاجعـل صفاتِك لابنـةِ الكـرْمِ

ثم يقول فيها:

تصفُ الطُّلولَ على السَّماع بها أَفَـذُوا العِيَـانِ كأنْت في الفَهْمِ؟
وإذا وصفْـتَ الشـيءَ متَّبِعًـا لـم تَخْـلُ مِـنْ زلَـلٍ ومِنْ وَهْـمِ

ولأن المتأخّرين إنما يجرون بريح المتقدمين، ويصبّون على قوالبهم، ويستمدّون بلعابهم، وينتجعون كلامهم، وقلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده. وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها، ومعاني أومأوا إليها، فأتى بها هؤلاء وأحسنوا فيها، وشعرهم مع ذلك أشبه بالزمان، والناس له أكثر استعمالا في مجالسهم وكتبهم وتمثّلهم ومطالبهم.

وقد استحسن الناس – أعزّك الله – لامرئ القيس تشبيهه شيئين بشيئين في بيت واحد، قالوا: لا يقدر أحد بعده على أن يأتي بمثله، وهو قوله في وصف عقاب:

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْبًا وَيابسًا لدى وكرِها العُنَّابُ والحشَفُ البالي

وقد أحسن فيه وأجمل، فقال بشار:

كأن مُثـارَ النَّقْـعِ فـوقَ رُؤوسِنَـا وأسْيَافَنَـا ليلٌ تهـاوتْ كواكبُـهُ

وهذا أعمى أكمهُ، لم ير هذا بعينه قط، فشبَّه حَدْسًا فأحسن وأجْمل، وشبه شيئين بشيئين في بيت. وقد نحا هذا منصور النَّمرِيّ فقال:

ليلٌ من النقع لا نجمٌ ولا قمرٌ　　إلاّ جبينُك والمَذْرُوبة الشُّرُعُ

وقال العتّابيّ:

إني أعوذ بخير النّاسِ كلِّهمِ　　وأنتَ ذاكَ بما تَأْتِي وتَجْتنبُ
وأنت كالدَّهرِ مَبثُوثًا حَبَائلُهُ　　والدهرُ لا مَلْجَأٌ ولا هَرَبُ
ولو ملَكْتُ عِنَانَ الريحِ أصْرِفُهُ　　في كل ناحيةٍ ما فاتَكَ الطلبُ

وهذا البيت من قول الفرزدق للحجاج:

ولو حملتْني الريحُ ثم طلبتني　　لكنتُ كشيءٍ أدركتْهُ مقادرُهْ

فجعل حيال "وإنك كالليل"، و"أنت كالدهر"، وجعل حيال "خطاطيف حجن"، "ولو ملكت عنان الريح"، وأحسن على أن عليّ بن جبلة قد مدح بمثل معنى النابغة حميدا فقال:

تبنِي سنابكُهَا من فوق رؤوسهمِ　　سَقفًا كواكبُه البيضُ المباتيرُ

فاستحسنوا قول النابغة يعتذر إلى النعمان في كلمة:

فإنك كالليل الذي هو مُدرِكي　　وإنْ خِلتُ أن المُنْتأى عنكَ وَاسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينة　　تمدّ بها أيدٍ إليك نَوازعُ

فقال سلم الخاسر يعتذر إلى المهدي في أبيات:

وما لامرئٍ حاولْتَهُ عنكَ مهرَبٌ ... ولو رَفَعَتْه في السماء المطالعُ
بَلَى هاربٌ لا يَهتدي لمكانه ... ظلامٌ ولا ضوءٌ من الصبح ساطعُ

فلابن جبلة أنه زادَ في المعنى وأشبعَه، وعليه أنه جاء به في بيتين، والنابغة جاء به في بيت وله السَّبق. ومثلُ قول ابن جبَلَة: "ولو رفعتْه في السماء المطالع" قولُ البحتري:

سُلِبوا وأشرقتِ الدِّماءُ عليهم ... مُحَمَّرةً فكأنهُمْ لم يُسْلَبُوا
وَلَو انهُمْ ركِبوا الكواكبَ لم يكُنْ ... لُمجدِّهِمْ عن أخْذِ بأسِكَ مَهْرَبُ

وقول سلم "وأنت كالدهر" مأخوذة من قول الأخطل:

وإنَّ أميرَ المؤمنينَ وفِعْلَهُ ... لكالدّهر لا عار بما فعل الدّهرُ

وأحسن ما قال الأوائل في الأوطان ومحبّتها، والتشوق إليها، ما أنشدني أبو أحمد يحي وغيره:

بلادٌ بها حلَّ الشبابُ تمائِمي ... وأولُ أرضٍ مسَّ جِلْدِي ترابُهَا

وقال ابن ميَّادة:

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة ... بحرّة ليلى حيث ربّتني أهلي
بلاد بها نيطت عليّ قلائدي ... وقطّعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن حابسي ... فأفش عليّ الرِّزقَ واجمعْ إذَن شَمْلي

إلى شبيه بهذا. فجاء ابن الرومي فذكر الوطن، وبيّن عن العلة التي لها يحبّ، وجمع ما فرّقوه في أبيات من قصيدة فقال:

ولي وطنٌ آليْتُ ألاّ أبيعَه ... وألاّ أرى غيري له الدّهرَ مَالِكا
عَهِدْتُ به شَرْخَ الشبابِ ونِعْمةً ... كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظِلالكا
فقدْ ألِفتْهُ النفسُ حتّى كأنّه ... لها جسدٌ إنْ غابَ غُودِرْتُ هالكا
وحبَّبَ أوطانَ الرِّجالِ إليهِم ... مآرِبُ قَضَّاها الشبابُ هُنالكا
إذ ذكَروا أوْطَانَهم ذكَّرتْهُمُ ... عُهودَ الصِّبَا فيها فحنُّوا لذلكا

واستحسن الناس للنابغة — فيما نقل — وصفه:

وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في مُستَهْدِفٍ ... رَابِي المَجَسَّةِ بالعبيرِ مُقَرْمَدِ
وإذا نَزَعْتَ نزعْتَ نزعْتَ عن مُستحصِفٍ ... نَزْعَ الحَزَوَّرِ بالرِّشَاءِ المُحْصَدِ

وقال غيره في هذا المعنى وزاد ونقص، فجمع ابن الرومي ما فرقوه في ثلاثة أبيات فقال:

لَها جِرٌ يستعيرُ وقْدَتَهُ ... من قلب صَبٍّ وصَدْرِ ذي حَنَقِ
كأنما حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ... ما أُلهِبَتْ في حَشَاه من حُرَقِ
يزدادُ ضيقًا على المِرَاسِ كما ... تَزْدادُ ضيقًا أُنْشُوطةُ الوَهَقِ

وفي هذه القصيدة وصف سوداء ولها عنى بما مضى، فتقدم الناس في الوصف فقال:

أكسبَها الحُبَّ أنها صُبِغَتْ ... صِبغةَ حبِّ القلوبِ والحَدَقِ

فانصرفتْ نحوَها الضمائرُ والأَبْصَارُ يُعْنِقْنَ أيَّمَا عَنَقِ

وإنما جئت بابن الرومي لأنه ممن رأيت وشاهدت، وهو أقربُ المحسنين عهدا، وآخرهم موتًا، ولو ترفّعْتُ إلى أبي تمام ومسلم وأبي العتاهية وأبي نواس وبشار، لرأيت مثل هذا يكثر، فكنتُ أخرجُ مما قصدتُ إلى غيره.

حدّثنا محمد بن سعيد قال، حدثنا عمر بن شبّة عن الأصمعي قال: كان الناس يقدّمون قول أبي النّجم:

كأنَّ تحتَ درْعِها المُنْعَطِّ إذا بدَا منها الذي تُعطِّي
شطًّا رميت فوقه بشطِّ ضَخْمَ القَذَالِ حَسَنَ المِخطِّ
كأنه قُطٌّ علَى مِقَطِّ كَهَامَةِ الشيخِ اليماني الثَّطِّ
لم يَعْلُ في البطنِ ولم يَنْحَطِّ

حتى قال بشار:

عجزاءُ مِن سرٍّ بني مالكٍ لَها حِرٌ من بَطْنِهَا أرفَعُ
زُيِّنَ أَعْلاه بإشْرافِهِ وانْضَمَّ مِنْ أَسْفلِهِ المَشْرَعُ

فعفّى على ذلك فحفظه الناس وقدّموه.

وقد أكثر الناس في ذكر الشذيب من قدماء الجاهلية والإسلام، فاجمع الحُذّاقُ بعلم الشعر وتمييز ألفاظه، أنه لم يُقَلْ فيه أحسنُ من قول منصور النَّمري، ووقع الإجماع عليه، فما ضَرّه تأخّره إذ وقع الأجود له، وهو قوله:

ما تنقضــي حَســرةٌ منــي ولا جَــزَعُ　　إذا ذكــرتُ شبابًـا ليسَ يُرْتَجعُ
بأن الشّبـــابُ وفاتتنــي بشِرَّتِـــهِ　　صُــروفُ دهــرٍ وأيَّــامٌ لها خُدَعُ
ما كنــتُ أُعطـي شبابي كُنْــهَ غِرَّتــهِ　　حتَّــى مضَـى فإذَا الدُّنيَـا لَهُ تَبـعُ
إنْ كنتِ لم تَطْعَمي ثُكلَ الشّبابِ ولـم　　تَشْجَــىْ بغُصَّتِـهِ فالعذْرُ لا يَقَــعُ

وقال عبد الوهاب المدائني:

وما كلُّ أهلِ الوِتْرِ يُجْزَى بقَرْضِهِ　　أَلا إنما تُجْـزَى قُــروضُ الأكـارِمِ
وذِكْرُ ذُنوبِ الوغْدِ يَرفَـعُ قَدْرَهُ　　وإنْ عَبَثَــتْ أَطْرَافُــهُ بالمظَالــمِ

حدثنا الحسين بن الحسن الأزديّ قال: حدثنا أبو حاتم عن الأصمعي قال: قالت أعرابية لابنها: إذا جالسْت الناسَ فأحسنتَ أن تقولَ كما يقولون فقُل، وإلا فخالفْ تُذكَر، ولو أَنْ تُعلّق في عُنقِك أَيْرَ حمار.

وسأذكر شيئًا مما عابه عليه مَنْ لا يَدْرِي، وأُبيِّنهُ لك – أعزَّك الله – هاهنا، إلى أن يمرَّ غيره في موضعه من شعره إن شاء الله.

عابوا – أعزّك الله- قوله في قصيدته التي أحسن فيها كلّ الإحسان، ومدح بها المعتصم، وذكر فتح عمّوريّة، وأوّل هذه القصيدة:

السيـفُ أَصْـدَقُ أنبـاءً منَ الكتُبِ　　في حدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجدِّ واللَّعِبِ

فعابوا قوله فيها:

تِسعُونَ أَلْفًا كآسادِ الشَّرى نَضِجَتْ أَعْمَارُهم قبل نُضْجِ التِّينِ والعِنَبِ

فإن كان هذا لأن التين والعنب ليس مما يذكر في الشعر وأنه مستهجن فقد قال ابن الرّقيات:

سَقْيًا لحُلْوَانَ ذي الكُرومِ ومَا صنَّفَ من تينِه ومن عِنَبِهْ

وأنشد الفرّاء في مدّ العنب:

كأَنَّهُ مِنْ ثَمرِ البَسَاتينْ العِنَبَاءُ المُتَنَقَّى وَالتِّينْ

وإن كان العيب لِمَ خصّها دون غيرهما؟ فقد كان يجب أن يتعلم هؤلاء أوّلا ويطلبوا، ثم يتكلمون ويعيبون.

حدثني أبو مالك عون بن محمد الكندي، كاتب حجر بن أحمد، وما رأيت أعلم بشعر أبي تمام منه، وكان قد قرأ على أبي تمام عشرين قصيدة من شعره، وقرأتها عليه / سنة خمس وثمانين، فقرأت هذه القصيدة عليه، فلما بلغت إلى هذا البيت سألته عن معناه، وعن عيب الناس له، فقال، حدثني أبي قال: غزوت عموريّة مع المعتصم، فبلغه أن الروم قالوا، وقد أناخ عليهم: والله إنا لنَروي أن لا يفتح حصننا إلا أولاد الزنا، وإن هؤلاء أقاموا إلى زمان التّين والعنب لا يفلت منهم أحد. فبلغ ذلك المعتصم فقال: أمّا إلى وقت التين والعنب، فأرجو أن ينصرني الله عز وجل قبل ذلك؛ وأما قولهم: "لا يفتحها إلا أولاد الزنا"، فما أريد أكثر ممّن معي منهم. قال أبو مالك: فأظنّ أبا تمام ذكرَ هذا المعنى في بيته. قال بكر: وقد سنح لي في صحة هذا

الخبر ابتداء أبي تمام به، وقوله: "السيف أصدق أنباء من الكتب"، فكأنه أشار إلى هذا. ولو وَهِمَ أبو تمام في بعض شعره، أو قصّر في شيء منه، لما كان من ذلك مستحقا أن يبطل إحسانه؛ كما أنه قد عاب العلماء على امرئ القيس ومن دونه من الشعراء القدماء والمحدثين أشياء كثيرة أخطأوا الوصف فيها، وغير ذلك مما يطول شرحه، فما سقطت بذلك مزاتبهم، فكيف خُصّ أبو تمام وحدة بذلك لولا شدة التعصّب وغلبة الجهل؟

وعابوا قوله وأسقطوه عند أنفسهم:

ما زَالَ يَهْــذِي بالمَوَاهِــب دائبًا   حتَّــى ظنَنَّـــا أنَّــه مَحْمُـــومُ

فكيف لم يسقطوا أبا نواس بقوله في العباس بن عبيد الله ابن أبي جعفر:

جُـــــدْتَ بالأَمْـــــوَالِ حتَّـــى   قيـــلَ مـــا هـــذَا صَحيـــحُ

والمحموم أحسن حالا من المجنون: لأن هذا يبرأ فيعود صحيحا كما كان، والمجنون قلما يتخلّص. فأبو تمام في تشبيهه الإفراط في الإعطاء والبذل بإكثار المحموم، أعذر من أبي نواس إذ شبهه بفعل المجنون. ولِمَ لَمْ يعيبوا قول الآخر:

بطـلٌ تـَـاذَرُهُ الكُمَـاةُ كأنّـهُ   مما يُــدِلُّ على الفوارِسِ أحْمَقُ

فصيّر إفراطه في شجاعته كفعل الأحمق الذي لا يُميِّز. وقد قال عُبيدٌ اللصُّ العنبريّ قبلُ، فألمّ بهذا المعنى إلا أنه قَسَمَهُ:

ما كـان يُعطِي مِثلَهَا في مِثلهِ   إلا كريـمُ الخيـمُ أو مجنـونُ

وكيف رضوا قول البحتري في هذا:

إذا معشَرٌ صانُوا السَّماحَ تعسَّفَتْ   به هِمَّـةٌ مجنونـةٌ في ابتِذالِـهِ

وقد قال أبو نواس:

جُـدتَ بالأمـوالِ حتَّـى   حَسِبُـوه النـاسُ حُمْقَـا

وعابوا قوله:

لا تَسقِنـي مـاءَ المـلام فإننـي   صَبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائي

أكثر ماء شعر الأخطل، قاله يونس بن حبيب ويقولون: ماء الصبابة، وماء الهوى يريدون الدمع، قال ذو الرمّة:

أأَنْ تَرَسَّمْتَ مِنْ خَرْقَـاءَ مَنْزِلَـةً   ماءُ الصبابـة من عينيك مسْجُومُ؟

وقال أيضا:

أَدَارًا بحُـزْوَى هِجْتِ للعين عَبْـرَةً   فمـاءُ الهوَى يَرْفَـضُّ أو يتَرَقْـرَقُ

وقال عبد الصمد وهو محسن عند من يطعن على أبي تمام وغيرهم:

أيّ مـاءٍ لمـاءِ وجهِـكَ يَبْقَـى   بعـد ذلِّ الهـوى وذلّ السـؤالِ؟

فصيّر لماء الوجه ماء. وقالوا: ماء الشباب، قال أبو العتاهية:

ظبيٌ عليـه من الملاحَـةِ حُلَّـةٌ   مـاءُ الشباب يَجـولُ في وَجَنَاتِهِ

وهو من قول ابن أبي ربيعة:

وَهْـيَ مكْنُونـةٌ تحيَّـرَ مِنهـا   في أديم الخدَّيْـنِ مَـاءُ الشَّبابِ

وقال أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل:

أَهْيَـفُ مَاءُ الشَّبابِ يَرْعَدُ فِي خدَّ   يْـه لَـوْلاَ أديمُـهُ قَطَـرَا

وأنشدني محمد بن عبد الله التميمي قال، أنشدني ابن السّكّيت:

قَدْ قُلْـتُ إذْ صِبَـاك يُرْعَـشُ   وَإذْ أَهَاضِيـبُ الشَّبَـابِ تَبْغَشُ

فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كلّه حرفا فجاء به في صدر بيته، لما قال في آخره: "فإنني صبّ قد استعذبتُ ماءَ بكائي"، قال في أوله:"لا تسقني ماءَ الملام"؟ وقد تَحمِل العربُ اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه. قال الله جل وعز: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

والسيئة الثانية ليست بسيئة لأنّها مجازاة، ولكنه لما قال: وجزاء سيِّئة، قال: سيئة، فحمل اللفظ على اللفظ، وكذلك (وَمَكَرُوا ومَكَرَ اللّه)، وكذلك (فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) لما قال: بشِّر هؤلاء بالجنة، قال: بشِّر هؤلاء بالعذاب، والبِشَارةُ إنما تكون في الخيرِ لا في الشرِّ، فحملَ اللفظَ على اللفظ. ويقال إنما قيل لها بشارة لأنها تَبْسُط الوجهَ، فأما الشر والكراهَةُ فإنهما يَقْبِضانه، كما قال الأعشى:

يزيــدُ يَغُــضُّ الطَّـرفَ دُونِـي كأنَّمـا ... زَوَى بين عَيْنَيْــهِ عَلَـيَّ المحاجــمُ
فلا ينبسِـطُ من بين عَينيـكَ ما انْـزَوَى ... ولا تَلْقَنِــي إلاَّ وأنفُــكَ راغِــمُ

وقال اللّه عز وجلّ (واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، فهذا أجلُّ استعارة وأحسنُها، وكلام العرب جارٍ عليها، فما يكون أَنْ قال أبو تمام: "لا تسقني ماءَ الملام"؟ وقال العتَّابي:

أُكَاتِـمُ لَوْعَـاتِ الهَـوَى ويُبِينُها ... تَخَلُّـلُ مَـاءِ الشَّـوْقِ بيْنَ جُفونِـي

وقال أبو نواس:

لمـا نَدَبْتُـكَ للجَزِيــلِ أَجَبْتَنــي ... لَبَّيْـكَ واسْتَعْذَبْـتَ مَـاءَ كَلاَمِي

فهذا – أعزّك اللّه – زائد لعُذْره، وعنوان للاحتجاج عنه، إلى أن تسمع في شعره جميعه إن شاء اللّه.

ولو عرف هؤلاء ما أنكره الناس على الشّعراء الحذّاق من القدماء والمحدثين لكثُر حتى يقلّ عندهم ما عابوه على أبي تمام إذا اعتقدوا الإنصاف ونظروا بعينه. ومنزلة عائب أبي تمام – وهو رأس في الشعر مبتدئ لمذهب الطائي، وكل حاذق بعده يُنسبُ إليه، ويُقفّي أثره – منزلة حقيرة يضان عن ذكرها الذمّ، ويرتفع عنها الوَهْدُ.

وقد كان الشعراء قبل أبي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة، فيعتدّ بذلك لهم من أجلّ الإحسان؛ وأبو تمام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره، فلعمري لقد فعل وأحسن، ولو قصّر في قليل – وما قصّر – لغرق ذلك في بحور إحسانه، ومن الكامل في شيء حتى لا يجوز عليه خطأ فيه، إلا ما يتوهّمه من لا عقل له؟ ومن العلوم خاص وعام، ومصون ومبذول، فلا ينبغي لمن عرف عامّة أن يجهل خاصّة، ولا لمن شرع في مبذوله أن ينكر مصونه، وإنما أجريتُ هذا لئلا يجسر على الحكم على الشعراء، وتمييز ألفاظهم، والحكم بالجيد والردئ لهم، من لم يكن أعلم الناس بالكلام منظومه ومنثوره، وأقدر الناس على شيء متى أراده منه، وأحفظهم لأخذ الشعراء، وأعلمهم بمغازيهم ومقصدهم.

فأمّا من لا يحسن أن يعمل بيتا جيدا، ولا يكتب رقعة بليغة، ولا ينال حفظه ما قالته الشعراء في عشرة معان من عشرة آلاف معنى قد قالت فيه، فكيف يجسر على ادعاء هذا، وكيف يسوّغه إياه من سمعه منه؟ وليت أبا تمام منى بعيب من يجلّ في علم الشعر قدره، أو

يحسن به علمه، ولكنه مني بمن لا يعرف جيدا ولا يُنكرُ رديئا إلا بالادعاء، وهذا كما قال زياد بن عبيد الله الحارثي:

فَلَـوْ أنّـي بُليـتُ بهـا شمّـي   خُؤُولَتـه بنُـو عبـدِ المَـدَانِ
صبَـرتُ على مقالتِـهِ ولكِـنْ   تَعَالَيْ فانظُـرِي بِمَن ابتلانـي !

وأنشد العُتبى:

فلو أن لحمـي إذ وهي لعِبَـتْ بهِ   أُسـودٌ كِـرامٌ أو ضبـاعٌ وأذْؤُبُ
لَهَوَّنَ من وَجْـدي وسلّى مصيبتـي   ولكنهـا أوْدَى بلحمـي أكلُـبُ

وقد سنح لي في جهل هذه الطبقة، وغفلة مصدّقيهم على ادعائهم معرفة ما لا يحسنونه قول الشاعر:

من ليس يدري ما يريد فكيف يدري ما نريد؟

وهذه الأبيات أولها:

مَالِـي أراكَ مُسَيَّبـا   أيـن السلاسِـلُ والقُيـودُ؟
أغَـلاَ الحديـدُ بأرضكـم   أم ليـس يضبَطُـك الحديـدُ؟

حدثني أبو سليمان النابلسي قال "دخل رجل على أيوب بن أحمد ببرقعيد، فأنشده شعرا، فجعل يعاتب جاريته ولا يستمع منه فخرج فقال:

أدَبٌ لعمـرُكَ فاسـدٌ   ممـا تُـؤَدِّبُ بَرْقعيـدُ
من ليـس يـدري ما يُريـدُ   فكيـف يـدْري مـا نُريـدُ؟

من ليــس يضبَطــه الحديــد فكيــف يضبَطُــه القصيــدُ
عقـــلٌ هُنالِـــك مُخلِـــقٌ والحمـــقُ مقتبـــلٌ جَديــدُ

وأنشدني يحي بن علي في الزجّاج:

فتعالَــى الإلــه ما أبلــدَ المــأ فُــون مُسْتَنْطَقًــا ومــا أعيــاهُ
ما رأينــا مــع المضَعَّــفِ ممــا يدَّعــي عِلْمَــه سِــوَى دعْــوَاهُ

ولولا ما اضطررت إليه من الاحتجاج لما ندبتني له، لما كان لمثل هؤلاء خاطر في فكري، ولا طريق على لساني، ولا أهلت منهم أحدا لذمّي؛ وقد أحسن مسلم في قوله في مثل هذا المعنى:

أمُوَيْسُ قل لي: أين أنتَ من الوري لا أنــتِ معلــومٌ ولا مجهــولٌ؟
أما الهجــاءُ فَــدقَّ عِرضُك دُونَهُ والمــدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاهبٌ فأنتَ طليــقُ عِرضِك إنَّهُ عِــرضٌ عَــزَزْتَ به وأنــتَ ذليلُ

وقال علي بن يحي:

إذهــبْ فأنــتَ طليــقُ عِــرْ ضِــكَ ذَلَّ حتــى قَــدْ حَماكــا
إنَّ المضَيِّــــعَ شِعْــــرَهُ عَيْــنَ المضَيِّــعِ مَنْ هجاكــا
إنــي سأصــرِفُ صَائِيًــا عنــكَ الهجــاءَ إلى سِوَاكــا
أَسَــلُ الــذي خلــقَ البريَّــ ـةَ أن يــراكَ كمــا أرَاكــا

كأن هذا البيت مأخوذ من قول أبي هشام لبشار:

بذِلَّــةِ والدَيْـكَ كَسَبْــتَ عِــزًّا وباللــؤمِ اجْتَــرأتَ على الجوابِ

وقال مسلم يهجو العباس بن الأحنف:

بنو حَنيفةَ لا يرضَى الدَّعِيُّ بهِمْ فاتْرُكْ حنيفةَ واطْلُبْ غَيْرَهَا نسبَا
اذهب إلى عَـرَبيٍ يُرضَـى بدعْوتهـم إني أرى وجهًـا يُشْبِـهُ العَرَبَـا
مُنِيـتَ مِنِّي وقد جَـدَّ الجِراء بنا بغايـة منَعتْـك الفَـوْتَ والطَّلَبَـا
فاذهب فأَنْتَ طليقُ الحِلـم مُرْتَهَنٌ بسَـوْرَةِ الجهلِ ما لمْ أملِكِ الغَضَبَا

وقال ابراهيم بن العباس الصّولي لمحمد بن عبد الملك:

كُنْ كيف شِئتَ وقل ما تشا وأبْـرِقْ يمينًـا وأرعِـدْ شمـالا
نجـا بِـكَ لؤمُك مَنْجـى الذُّبـا بِ حمتْـه مقـاذِرُه أن يُنـالاَ

وهم كما قال أبو نواس:

بِمَـا أَهْجُـوكَ لا أدري لسانِـي فيـك لا يَجْـري
إذا فكّـرتُ فـي عِـرْضِـ ـكَ أَشفقْـتُ عَلَـى شِعْـري

وكما قال علي بن يحيى:

إذا وضعنـاكَ رفعنـاكـا وإن هَجَوْنَـاكَ مدحنـاكـا
وكيـف يُهجَـى رجُـلٌ قَـدْرُهُ أعاننـا الله وإيَّـاكـا؟

ونحو هذا:

ما كنت أحسَبُ أن قُبْحًا كائنًا حُسْنًـا ولا حَسَنًا يكون قبيحا
حتى هَجوْتُ بكلِّ قولٍ مُقْـذِعٍ يحـي فكـان لهُ الهجاءُ مديحا

وقال الحطيئة:

فمن أَنْتُـمُ إنا نسينـا مَن انتُـمُ وريحُكـم من أي ريـحِ الأعاصـرِ

أَأَنْتُمْ أُولَى جِئتُمْ مَعَ البقْل والدَّبَا فطارًا وهذا شخّصُكم غير طائرِ؟
أَرِيحُوا البلاد منكمُ وتحمَّلُوا عَلَى سَوْءَةٍ فِعلَ الإِماءِ العَوَاهِرِ

وقال آخر:

شاتمني عَبدُ بَنِي مِسْمَعٍ فَصُنْتُ عنه النفسَ والعِرْضَا
ولم أُجاوِبْه احتقارًا له ومن يَعضُّ الكلبَ إنْ عَضَّ

وقال يزيد المهَلَّبي:

نُبئتُ كلبًا هابَ رمْيي له ينبحُني مِنْ مَوْضِعٍ نائي
لو كنت من شيءٍ هجوناكَ أوْ لَوْ بِنْتَ للسَّامعِ والرّائي
فعَدٌّ عن شَتْمِي فإني امرؤ حَلَّمني قِلَّةُ أكفائي

وقال آخر:

لستُ أَهْجُوكَ لستَ عندي بندٍّ فبكفَّيْكَ فاهْجُنِي وبرِجْلِكْ
كيفَ أهجوكَ والهجاءُ يُبَكِّ حذرًا أن يناله نَتْنُ أصلِكْ

وقال محمد بن عبّاد الكاتب في أبي سعد المخزومي:

أيقنت أنك ما سببت حماك لؤمك أن تسبّا والكلب إن ينبح
فليس جوابه إلاّ أخْسَ كَلبا.

خَفِّضْ عليكَ وقِفْ مَكَانَكَ لا تَطُفْ شَرْقًا وغَرْبا

واكشف قناع أبيك فالآباء ليس تنال غصبا وما أضرّ أبا تمام قول هؤلاء، كما أنه لا يضرّ البحر أن يقذف فيه حجر، ولا ينقص البدر أن ينبحه الكلب، وقد قال الشاعر:

ما يضــرُّ البحــرَ أمسى زاخـرًا ... أَنْ رَمَــى فيــه غــلامٌ بحجــرْ

وأنشدنا أبو ذكوان قال انشدني التَّوَّجي للمُخَبَّل:

إذا ذَكَـرُوا الحطيئة لم يَعُدُّوا ... حَديثًـا عنـد ذاك ولا قديمــا
وما كانَ الحطيئةَ غَيرَ كلبٍ ... رمــاهُ اللّه أنْ نَبَـــح النُّجُومــا

ولي من قصيدة:

ما عســى حاســدٌ يقــولُ إذا مـا ... حطبَ النـاسَ بالحـوادثِ خَطْبُ
فكفــاهُ أغَــرُّ منهــم وسيــمٌ ... صَدْرُه في العطاءِ والبأسِ رَحْبُ
غيرَهَــمٌ يَنُبُّــه مــن بعيــدٍ ... مثل ما ينبُ الكواكبَ كلبُ

وقــال:

ولقد قتلتُــك بالهجـاءِ فلم تَمُتْ ... إنَّ الكـلابَ طَوِيلَــةُ الأعْمَــارِ

وقال ابن الرومي يهجو ابن أبي طاهر من أبيات:

رأيتــك تَنْبَحُنــي ســادرًا ... كفعلِــكَ بالقمــرِ الباهــرِ
وإنَّ قِسِــيَّ لمبريَّــــةٌ ... بكـلِّ أميــنِ القُــوَى حــادرِ
ولكــنْ وقــاكَ مَعَرَّاتِهــا ... تضــاؤلُ قَــدْرِكَ في الخاطــرِ
فَلاَ تخْــشَ مِنْ أسهُمِــي صَائبًا ... ولا تَأْمَنَــنَّ مِنَ العَـائِــرِ

وقال غيرُه:

الهجْـوُ لما أَنْ هجوتُـكَ قـال لـي: أَهَجَوْتَـــهُ بي أَمْ بِهِ تهجُونـــي ؟
والشتـمُ أيضـا قـالَ لـي متعجِّبّـا   يا مَـنْ يُشَاتِمُنِـي بمَنْ هُوَ دُونـي

وقال آخر:

ذهـــب الذيـــن أُحبُّهـــم   وبقيـــتُ فيمَـــنْ لا أُحبُّـــهْ
إذْ لا يـــزَالُ كريـــمُ قَـــوْ   مٍ فيهـــم كلـــبٌ يَسُبُّـــهْ

وقال بشار يهجو أبا هشام الباهليّ من أبيات:

أيَشْتِمُ عِرْضِي البَاهِلِيُّ بِعِرْضِهِ   لعمـرُكَ إنـي بَعْـدَهَا لَمُشْتَـمُ
أليسَ مِنَ اشراطِ القِيَامَةِ أَنْ يُـرَى   كَرِيـمٌ يُلاحيـه لَئِيـمٌ مُذَمَّمُ

وقال منصور بن باذام الاصبهاني:

أردتُ أن أهْجُـــوكَ حتـــى إذَا   عَلِمـــتُ من أنـــت تقـــزَّزْتُ
وكيـــفَ أهْجُـــوكَ وما مَـرَّةً   ذكـــرت لـــي إلا تبزّقـــتُ
فَـــذَاكَ أَنْجَـــاكَ وَلَـــوْ أنني   أَردتُ أَنْ أَهْجُـــوكَ أَحْسَنـــتُ
فكـــم فَتَـــى تَصغُرُ عن قَـدْرِهِ   كَوَيْـــتُ جنبيْـــهِ فأَنْضَجْـتُ

وقال آخر:

لقد جَلَّ قَـدْرُ الكلـبِ إنْ كانَ كلّما   عَوَى وَأَطَـالَ النَّبْـحَ أَلْقَمْتُه حَجَرْ

وقال الفرزدق لجرير:

ما ضَرَّ تَغْلِـبَ وَائِـلٍ أَهَجَوْتَهَـا   أَمْ بُلْـتَ حَيْـثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وقال حسان:

لاَ تَسُبُّنَّنِـــي فَلَسْـــتَ بِسَبِّـــي ... إنَّ سِبِّـي مِنَ الرِّجَـالِ الكَرِيـمُ

مَا أُبَالِي أَنَـبَّ بالحَـــزْنِ تَيْـسٌ ... أَمْ لَحَانِـــي بِظَهْـرِ غَيْـبٍ لَئِيـمُ

وقال آخر:

لَعَمْرِي لَقَـدْ سَابِبتَنِـي فَغَلَبْتَنِـي ... هَنِيئًـا مَرِيئًـا أَنْتَ بالسَّبِّ أَحْذَقُ !

وقال مخلّد:

قَدْ كَثُـرَ العَيْـبُ فِيـكَ حَتَّـى ... أعَــاذَكَ العَيْـــبُ مِنْ هِجَائِــي

لاَ تَحْمَدَنِّـــي وَكُـــنْ حَمِيـدًا ... مَا فِيـــكَ مِنْ كَثْـــرَةِ البَـــلاَءِ

وقال خيار الكاتب:

وَمَا كلُّ كلبٍ نابحٍ يستفِزُّني ... ولا كلمـا طـار الذبـابُ أُرَاعُ

وقد عَلِمـتْ أُسْـدُ العرينِ بأنني ... أُوائبُهَـا وَحْـدي وَهُـنَّ جِمَـاعُ

فما لِضِيَـاعٍ نَذْلَـةٍ قد تَعَرَّضَـتْ ... متى وَثَبـتْ بالمُخْـدراتِ ضِيَـاعُ

وقال:

أَوَ كلمـا طـنَّ الذبابُ طردتُه ... إنَّ الذبـابَ إذَنْ عَلَـيَّ كَرِيمُ !

وقال أعربيّ في المعنى الأول:

العبدُ يَجتنِـبُ الهجـاءَ لِسيِّـدٍ ... ولَكَ الهجـاءُ إذا هُجيـتَ جَمَالُ

لم يبـق عـــار في البريـة كلّها ... إلاّ وأخبــثُ منهُ فيـكَ يُقَـالُ

وقال دعبل:

وأكرهـتُ الهجـاءَ على لئيـمٍ ... فلمـا ذَاقَـهُ لِلُّـؤمِ عافَـهُ

وقال البحتري:

عَلَيَّ نَحْتُ القوافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا ... ومـا عَلَيَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ البَقَرُ
إذَا محاسِنِي اللائِي أُدِلُّ بها ... كانتْ ذُنوبي فقلْ لي كيفَ أَعتَذِرُ؟

أخذت البيت الأول من قول أبي تمام:

لا يدْهَمَنَّكَ مِن دَهْمائِهِمْ عَدَدٌ ... فإنَّ أكثَرَهُمْ أوْ جُلَّهُمْ بَقَرُ

وأخذ البيت الثاني من قول أبي تمام أيضا:

فإن كان ذنبي أنّ أحسن مطلبي ... أسَاءَ ففِي سُوءِ القضَاءِ لِي العُذْرُ

وأخذه أبو تمام، وأخذاه جميعا من قول أبي حنش الفزاري، حين فر عن حذيفة بن بدر يوم الهباءة.

وكم مِنْ مَوْقِفٍ حَسَنٍ أحيلتْ ... محاسِنُه فعُدَّ من الذُّنوبِ

وهذه أبيات حسان منها:

ذكرتُ بموقفِي حَمَلَ بنَ بدْرٍ ... وصَاحِبَه الأَلَدَّ لدَى الخُطُوبِ
فقلتُ لهنَّ: لا عذرٌ لدينا ... يكونُ من المحبِّ إلى الحبيبِ
فلو صدق الهوى أو كنتُ حُرًّا ... لَمِتُّ مع النَّدَى يومَ القَليبِ
وذنبي حاضرٌ لاستُرَ عَنْه ... لطالبه وعُذري بالمغِيبِ
وقد جاهَدتُ حتى لاجِهادٌ ... وماتتْ حيلةُ الرجلِ الأريبِ
ولا عُذرٌ يُعَدُّ عَلَيَّ نَفْعًا ... وكَرُّ العُذرِ من فعل المُريبِ
وكمْ من موقفٍ حسنٍ أُحيلتْ ... محاسنُه فعُدَّ مِنَ الذُّنوبِ

وأنشد أبومحلّم:

على الساغبِ الظمآنِ أنْ يطلُبَ القِرَى وليسَ عليه أن تَصُوبَ الرَّواعدُ

وقال أبوتمام يشير إلى هذا :

وركْبٍ كأطرافِ الأسنَّةِ عَرَّسُوا على مثلِهَا والليلُ داجٍ غياهبُهْ
لأَمْرٍ عليهم أنْ تَتِمَّ صدورُه وليس عليهِمْ أَنْ تَتِمَّ عواقُبهْ

وكأنّ هذين البيتين نقلا من قول ابن أبي أنشدناه أحمد بن يحي:

غلامُ وغًى تَقَحَّمها فأَبْلَى فخَانَ بلاءَهُ دَهرٌ خَؤُونُ
وكانَ على الفتَى الإقْدَامُ فيهَا وليسَ عَلَيْهِ ما جَنَتِ المَنُونُ

ولي من الأبيات في المشورة:

وشاورتُ في أمرِي الذينَ أَودُّهم ولا يَجدُ النُّجحَ الذي لا يُشَاوِرُ
لأَبْلُغَ عُذرًا في الذي قد رَأَيْتُهُ ولا ذنبَ لِي فيمَا تَجُرُّ المقادِرُ

وليس أحد من الشعراء – أعزك الله – يعمل المعاني ويخترعها ويتّكئ على نفسه فيها أكثر من أبي تمام؛ ومتى أخذ معنى زاد عليه، ووشّحه ببديعه، وتمّم معناه، فكان أحقّ به. وكذلك الحكم في الأخذ عند العلماء بالشعر كقول أوْس بن حجر:

أقولُ بما صبَّتْ عَلَيَّ غمامتي وجُهْدِيَ في حَبْلِ العشيرةِ أحْطِبُ

فقال أبوتمام:

فلَوْ كَانَ يفْنَى الشعرُ أفنته مَاقَرتْ حياضُكَ مِنْهُ فِي العُصُورِ الذَّوَاهِبِ
ولكنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ إذَا انْثَنَتْ سَحَائِبُ مِنْهَا أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وكقول النابغة الجعدي في صفة الحرب في قصيدة:

ألم تعلمُوا ما تَرْزَأُ الحربُ أهلَها وعِنْدَ ذَوِي الأَحلام مِنها التجاربُ
لها السادةُ الأشرافُ تأْتي عليهم فتُهْلكُهُم والسَّابِحَاتُ النَّجَائبُ
وتستلبُ الدُّهْمَ التي كانَ ربُّها ضَنِينًا بهَا والحربُ فيها الحرائبُ

فقال أبو تمام:

والحرْبُ مشتقة المعنى من الحَرَبِ

وقال ابراهيم بن المهدي:

هُمْ هَيَّجُوا الحربَ واسمُ الحربِ قد عَلِمُوا لو ينفَعُ العِلمُ مشتَقٌ منَ الحَرَبِ

وقليلا ما يفعل هذا إلا مع مسلم بن الوليد:

وليس يجب – أعزك الله – أن تنظر إلى اختلاف الناس في أبي تمام، واضطراب روايتهم لشعره، فإنهم بعد اتمام هذه النسخة يجتمعون عليها، ويسقطون غيرها، كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره، ثم قد اجتمعوا عليه بعد فراغي منه، حتى إن النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم، قد كانت قبل ذاك تباع بعددها دنانير، ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى، وتسقط فلا تراد.

وقد رأيت –أعزك الله- بعض هؤلاء الجهلة يصحّف أيضا على أبي تمام، ثم يعيب ما لم يقله أبو تمام قط، وأنا ذاكر ذلك في موضعه من الشعر إذ كنت قد خفت إعراضك، وكرهت املالك، على أني قد أطلب هذه الرسالة –أعزّك الله- استلذاذا لخطابك،

وشغفا بمرادك، ولتعلم أني بلغت ما في نفسك، وقضيت بعض حقك.

وانا أتّبع هذه الرسالة باخباره، إذ كانت عزيزة لا تكاد تجتمع لأحد، وهي تنقضي سريعا ثم أتبعها بعمل شعره إن شاء الله.

الفهرس

"ابتكار المعاني خطر" تقديم: محمد بن العربي الجلاصي 5
المقدّمة.. 17
في تجليات "الانتصار" 21
الردّ وبلاغة الانتصار.. 71
الخاتمة.. 113
رسالة أبي بكر الصّولي إلى مُزاحِم بن فاتِك.................. 119
الفهرس.. 154



المطبعة المغاربية للطباعة و النشر و الإشهار
الهاتف : 471 837 70 – الفاكس : 263 837 70

حمـــادي صمّـــود

أستاذ البلاغة بالجامعة التونسية
أستاذ الجامعات الفرنسية.
رئيس وحدة البحث
في تحليل الخطاب.



لسنا نهتمّ في عملنا هذا بتحليل مواقف الصّولي من شعر الشّاعر ولا يهمّنا أيضا أن نقف على تصوّره للشعر ومعاييره في تقويمه والحكم فيه. وإنّما يهمّنا أن ندرس الكيفية التي يبرز بها التعصّب والبلاغة التي تعبّر عن الانتصار وتسعى إلى ترويجه بين النّاس.

ويحتاج الانتصار، ليفعل فعله في الناس وليروج باعتباره خطاب جمع وضمّ، أن يتستّر تحت أقنعة العدل والموضوعية في الحكم والبحث عن الحقيقة بتحليل المواقف والبحث عن أسبابها وإيجاد المعاذير للبعض منها والاستناد على بعضها الآخر المبني على سوء النية والظلم.



ISBN : 9973-120-107-8

دار المعرفة للنشر : 79 شارع فرحات حشاد - تونس
الجمهورية التونسية - الهاتف : 621 241 71 00216

الثمن : 7000 دت